



القسم الثاني

النص المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً لا أحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله ورضي الله عن صحبه والتابعين لهم بإحسان.

وبعد:

فلما كانت سورة العصر على اختصارها، فإنها اشتملت^(١) على ثلاث آيات، ولم يكن في القرآن ما يشابهها من السور في الاختصار إلا سورة الكوثر^(٢)، وسورة النصر^(٣)، وكانت مشتملة على فوائد جليلة يستفيد بها المبتدئ والمتنهي، ويحتاج إليها المقصر والكامل، أفردتها بهذا التفسير المختصر، ليستفيد المطلع عليه ما اشتمل عليه مما تمس الحاجة إليه وسميته: (النشر لفوائد سورة العصر). ومن الله أستمد الإعانة وحسن الإثابة.

(١) في (ب) فإنها ليست إلا ثلاث آيات.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثِرَ﴾، وهي من السور المكية، وآياتها ثلاث آيات. انظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٩٥/١٥).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وهي من السور المدنية، وآياتها ثلاث آيات. انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، ط ١، ١٤٠٧ هـ، دار الفكر، بيروت (٣٢٤/٨).

تفسير سورة العصر

هي ثلاث آيات، وقد وقع الخلاف هل هي مكة أو مدينة؟ فذهب الجمهور إلى أنها مكة^(١)، وخالفهم قتادة^(٢) فقال: هي مدينة^(٣)، والقول الأول أرجح لما أخرجه ابن مردويه^(٤) عن ابن عباس^(٥) أنه قال: «نزلت سورة العصر بمكة»^(٦)، وأيضاً المقام مرجعه الرواية لا الرأي، فنقل الأكثرين

(١) انظر: الواحدي، علي بن محمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، ١٤١٥هـ، دار القلم دمشق (١٢٣١/٢)، والبخاري، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ط٤، ١٤١٧هـ، دار طيبة، الرياض (٥٢٩/٨)، وابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣٦١/١٦)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٢٠)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٥٢/٨)، والسيوطي، الدر المنثور (٦٤١/١٥)، والشوكاني، فتح القدير (٦٩٨/٥)، وقال به من الصحابة: ابن عباس، وابن الزبير رضي الله عنهما. انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٣٠٣/٨).

(٢) هو: قتادة بن دعامة أبو الخطاب السدوسي البصري الأعمى المفسر أحد الأئمة في حروف القرآن، روى القراءة عن أبي العالية وأنس بن مالك، وكان يضرب بحفظه المثل، مات سنة (١١٨)، انظر: الزهري، محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، ط١، ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت (٢٢٩/٧)، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ط٧، ١٤١٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (٢٦٩/٥)، الداودي، محمد بن علي، طبقات المفسرين، ط١، ١٣٩٢هـ، مكتبة وهبة، القاهرة (٤٣/٢).

(٣) وقال به أيضاً: مجاهد، انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٣٠٣/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٢٠).

(٤) هو: أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك أبو بكر الأصبهاني الحافظ العلامة، صنف التفسير والتاريخ، وخرّج حديث الأئمة وسمع الكثير بأصبهان والعراق، مات سنة (٤١٠)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٠٨/١٧)، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (ط، د)، ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث، بيروت (١٣١ / ٨)، الأذنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٠١).

(٥) هو: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، يكنى أبا العباس، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، مات بالطائف سنة (٦٨)، انظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط١، ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت (٩٣٣/٣)، ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (ط، د)، ١٣٩٠هـ، دار الشعب (٢٩٠/٣)، ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، ١٤٢١هـ، دار الفكر، بيروت (٢٢٩/٣).

(٦) أخرجه ابن الضريس، محمد بن أيوب، في فضائل القرآن، ط١، ١٤٠٨هـ، دار الفكر، بيروت (ص ٣٣)، رقم (١٧)، والنحاس، أحمد بن محمد، في الناسخ والمنسوخ، ط١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٥٣/٣)، رقم (٩٣٥)، والبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، في دلائل النبوة، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٤/٧)، رقم (٣٠٦٩)، وابن مردويه كما عند السيوطي، في الدر المنثور

مرجح على انفراده على تقدير أن المخالف عدد دون عددهم، فكيف وهو فرد! وهم الكل.

وأيضاً الغالب في هذه السور^(١) المختصرة كالسور التي هي قبل هذه السورة، والتي هي بعدها ونحوهما أنها مكية، والحمل على الغالب مرجح مستقل كما تقرر في الأصول^(٢).

وقد كان لهذه السورة شأن عظيم عند السلف رضي الله عنهم، فأخرج الطبراني^(٣) في الأوسط، والبيهقي^(٤) في الشعب عن أبي مدينة^(٥) الدارمي وكانت له صحبة قال: «كان الرجلان من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله

(١) (٦٤١/١٥)، قال السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، في الإتقان في علوم القرآن، (ط، د)،

(د، ت)، دار التراث، القاهرة. (٢٥/١): «إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات».

(١) في (ب) السورة.

(٢) انظر: الحنبلي، محمد بن محمد ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير، ط ١، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٠٦/٥).

(٣) هو: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني حافظ عصره، رحل في طلب الحديث، وله المصنفات الممتعة النافعة منها المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير وهي أشهر كتبه، مات سنة (٣٦٠)، انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله، تأريخ مدينة دمشق، (ط، د)، ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت (١٦٣/٢٢)، ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط ١، ١٩٩٤م، دار الثقافة، لبنان (٤٠٧/٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١٩/١٦).

(٤) هو: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي الإمام الحافظ رحل وصنّف، ومن تصانيفه السنن الكبير والسنن الصغير، مات سنة (٤٥٨)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٧٥/١)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦٣/١٨)، ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد، طبقات الشافعية، ط ١، ١٤٠٧هـ، دار عالم الكتب، بيروت (٢٢٠/١).

(٥) في النسختين من المخطوط (أبي مزينة)، والصواب: أبو مدينة الدارمي؛ لأن ممن يطلق عليه أبو مدينة اثنان: أحدهما: له صحبه، وهو الذي معنا، والآخر: تابعي، وكلاهما اسمه: عبد الله بن حصن، فاتفق الاسم واسم الأب والكنية؛ لكن المراد هنا عبد الله بن حصن الدارمي، الذي له صحبة، ذكر ذلك الطبراني، سليمان بن أحمد، في المعجم الأوسط، (ط، د)، ١٤١٥هـ، دار الحرمين، القاهرة (٢١٥/٥)، وقال ابن حجر، في الإصابة (١٨٢/٣): «عبد الله بن حصن الدارمي، أبو مدينة معروف بكنيته، سماه الطبراني..، كانت له صحبة..، وفي التابعين عبد الله بن حصن السدوسي، يروي عن أبي موسى الأشعري»، وقال ابن ماکولا: «عبد الله بن حصن السدوسي، سمع ابن عباس وأبا موسى وابن الزبير، روى عنه قتادة حديثه في البصريين»، ابن ماکولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر، الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ط ١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (١٨٨/٧).

وسلم إذا التقيا لم يتفرقا، حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر»^(١).

قلت: ولعل الحامل لهم^(٢) على ذلك ما اشتملت عليه من الموعظة الحسنة من التواصي بالحق والتواصي بالصبر [أ] بعد الحكم على هذا النوع الإنساني حكماً مؤكداً بأنه في خُسْرٍ، فإن ذلك مما ترجف له القلوب، وتقشعر عنده الجلود، وتقف لديه الشعور، وكأن^(٣) كل واحد من المتلاقين يقول لصاحبه: أنا وأنت وسائر أبناء جنسنا، وأهل جلدتنا خاسر لا محالة إلا أن يتخلص^(٤) عن هذه الرزية، وينجو بنفسه عن هذه البلية؛ بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق وبالصبر، فيحمله الخوف الممزوج بالرجاء على فتح أسباب النجاء، وقرع أبواب الالتجاء.

فإن قلت: كيف وقع منهم تخصيص هذه السورة بهذه المزية دون غيرها من السور المختصرة؟

قلت: وجه ذلك ما قدمنا من اشتمالها على ما اشتملت عليه ترهيباً وترغيباً، وتحذيراً وتبشيراً، وإنذاراً وإعذاراً، بخلاف غيرها من السور، فإنك تجدها غير مشتملة على ما اشتملت عليه هذه^(٥).

انظر إلى السورة التي قبلها^(٦) فإنها خاصة بالتهديد والتشديد على من ألهاهم التكاثر^(٧).

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٣).

(٢) في (ب) لهما.

(٣) في (ب) وكان.

(٤) في (ب) نتخلص.

(٥) قال الشافعي: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم» أ. هـ. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٦).

(٦) سورة التكاثر.

(٧) فسّر النبي ﷺ التكاثر بالمال، أخرج مسلم بن الحجاج، في صحيح مسلم، (ط، د، د)، دار الكتب العلمية، بيروت، في الزهد والرقائق، باب (بدون ترجمة)، (٤/ ٢٢٧٣)، رقم (٢٩٥٨)، من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: (يقول بن آدم مالي مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت، فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت).

وانظر إلى السورة التي بعدها^(١) فإنها مختصة بالوعيد العظيم، والترهيب الأليم للهمزة اللُّمزة^(٢)، وهكذا سائر هذه السور المختصرة مع قيام كل واحدة في بابها مقاماً يعجز عنه البشر، غير أنها لم تكن كهذه السورة في ذلك الحكم العام؛ بذلك الأمر الشديد المشتمل على أبلغ تهديد، مع أكمل توكيد، ثم تعليق النجاة منه بذلك الأمر الذي هو لبُّ اللباب، وغاية طلبات أولي الألباب.

وبالجمله فهو حكم بالهلاك على كل فرد من أفراد النوع إلا إذا لاحظته التوفيق بسلوك تلك الطريق، وسلم من آفات التعويق. وسيأتيك - إن شاء الله - من البيان لهذا الشأن ما هو أعظم برهان.

فإن قلت: هل يحسن منا عند الالتقاء الاقتداء بذلك السلف الصالح؟ قلت: نعم، وإن لم يدل عليه دليل يخصه من المرفوع^(٣)، لكن قد ورد في عمومات الكتاب والسنة ما يدل على أنه ينبغي لكل فرد من المسلمين أن يدعو^(٤) أخاه إلى أسباب الهداية، ويزجره عن ذرائع الغواية، ويعظه بمواعظ الله سبحانه، فإن ذلك من النصيحة التي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الطبري، محمد بن جرير، في جامع البيان في تأويل القرآن، ط ١، ١٤٢٢ هـ، مؤسسة هجر، القاهرة (٢٤/٦٠٠): «وقوله ﷺ بعقب قراءته: ﴿الْهَنْكُمُ﴾، ليس لك من مالك إلا كذا، وكذا ينبىء أن معنى ذلك عنده: ﴿الْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، المال» أ. هـ.

(١) سورة الهمزة.

(٢) قال أبو الجوزاء: قلت لابن عباس: من هؤلاء الذين بدأهم الله بالويل؟ قال: «هم المشأون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون أكبر العيب».

وقال مجاهد: «الهمزة: يأكل لحوم الناس، واللمزة: الطعان». الطبري، جامع البيان (٢٤/٦١٧).
(٣) قال الألباني، في السلسلة الصحيحة (٦ / ٣٠٨): «في هذا الحديث فائدتان: إحداهما: التسليم عند الافتراق، وقد جاء النص بذلك صريحاً من قوله ﷺ: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، وإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة). وهو حديث صحيح مخرج في "السلسلة" (١٨٣)، والآخرة: نستفيدها من التزام الصحابة لها. وهي قراءة سورة (العصر)؛ لأننا نعتقد أنهم أبعد الناس عن أن يحدثوا في الدين عبادة يتقربون بها إلى الله، إلا أن يكون ذلك بتوقيف من رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً.

(٤) في (ب) يدعوا.

فيها: (الدين النصيحة)^(١).

وقد تواترت الأدلة المرشدة إلى المناصحة^(٢)، وأيضاً ذلك يندرج تحت عمادي هذا الدين اللذين تُبنى عليهما قناطره، وترجع إليهما أوائله وأواخره، وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا وجدنا [ب] لذلك موضعاً، ورأينا له قبولاً.

ولا أقول أنه يتعين على الأمر الناهي تلاوة هذه السورة، بل أقول إنها من أتم ما يحصل به هذا الغرض، ويتأدى عنده هذا المطلب، وأنت تعلم أن الله سبحانه إنما أنزل هذه السورة على عباده ليعملوا بها، ويقوموا بما اشتملت عليه من التواصي بالحق والصبر، وفي تلاوتها عند تلاقيهم أعظم موعظة، وأتم موقظة.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قد وقع الاختلاف بين أهل العلم في البسمة هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها؟ أو هي بعض آية من أول كل سورة؟ أو هي آية في الفاتحة فقط دون غيرها من السور؟ أو أنها ليست بآية في الجميع، وإنما كتبت للفصل والتبرك؟ فذهب الجمهور إلى الأول^(٣)، ومن القراء قراء

(١) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٧٤/١)، رقم (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة)، قلنا: لمن؟ قال: (الله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم).

(٢) من ذلك ما أخرجه مسلم، صحيح مسلم، في السلام، باب من حق المسلم للمسلم (١٧٠٤/٤)، رقم (٢١٦٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (حق المسلم على المسلم ست)، قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: (إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه).

(٣) وهو: أن البسمة آية مستقلة في أول كل سورة لإبراءة، وبهذا قال: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي، ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، والزهري، وبه قال: عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله. انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢/١)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١ / ١٤٢)، السيوطي، الدر المنثور (١/٢٩-٣٠).

مكة^(١) والكوفة^(٢)، ومنهم ابن كثير^(٣)، وعاصم^(٤)، والكسائي^(٥)،
وقالون^(٦)، وهو الحق^(٧)؛ لأن إثباتها في الرسم بلا خلاف يدل على أن لها
حكم سائر الآيات القرآنية.

وقد انضم إلى ذلك تلاوتها عند تلاوة القرآن من السلف والخلف والقراء
وغيرهم في أول كل سورة إلا في سورة التوبة، ولا يقدر في ذلك تكرارها

(١) تقع مكة المكرمة في وادٍ من أودية تخوم جبال السراة، وهذا الوادي وصفه الله في القرآن الكريم: بوادٍ غير ذي
زرع؟، وهي تقع في الجهة الغربية من المملكة العربية السعودية. وأهم سبل الوصول إليها من جهة الغرب
مدينة جدة على بعد ٧٥ كم، وتبلغ مساحتها المعمورة ٦,٥٠٠ هكتار. الموسوعة العربية العالمية (مكة).

(٢) الكوفة بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، وهي أول عاصمة إسلامية بعد خروج الخلافة من
المدينة، في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وأسسها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عام ١٧ هـ، و
قد ظلت الكوفة مركزاً من مراكز الثقافة والعلم في القرنين الثاني والثالث الهجريين. انظر: الحموي، معجم
البلدان (٤/٤٩٠)، والموسوعة العربية العالمية (الكوفة).

(٣) هو: عبدالله بن كثير بن المطلب الإمام أبو معبد مولى عمرو بن علقمة الكناني المكي، إمام المكيين في القراءة
أصله فارسي، قرأ على عبدالله بن السائب المخزومي ومجاهد بن جبر، مات سنة (١٢٠)، انظر: الزهري،
الطبقات الكبرى (٥/٤٨٤)، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، معرفة القراء الكبار، ط ٢، ١٤٠٨ هـ،
مؤسسة الرسالة، بيروت (١/٨٦)، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال،
ط ٢، ١٣٨٢ هـ، دار المعرفة، بيروت (٢/٤٧٣).

(٤) هو: عاصم بن أبي النجود الأسدي مولا هم الكوفي، القارئ الإمام أحد السبعة، قرأ على أبي عبدالرحمن
السلمي وزر بن حبيش الأسدي، وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالكوفة، مات سنة (١٢٧)، انظر: ابن
خلكان، وفيات الأعيان (٣/٩)، الذهبي، معرفة القراء الكبار (١/٨٨)، الصفدي، الوافي بالوفيات
(١٦/٣٢٦).

(٥) هو: علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي أبو الحسن الأسدي مولا هم الكوفي المقريء، كان إمام الكوفيين في
اللغة والنحو، وسابع القراء السبعة، من مصنفاته معاني القرآن العظيم، مات سنة (١٨٩)، انظر: ابن خلكان،
وفيات الأعيان (٣/٢٩٥)، الذهبي، معرفة القراء الكبار (١/١٢٠-١٢٨)، الأذنه وي، طبقات المفسرين
(١/٢١).

(٦) هو: قالون أبو موسى عيسى بن ميناء بن وردان الزرقي، مولى بني زهرة، قارئ أهل المدينة في زمانه
ونحوهم، كان ربيب نافع، وهو الذي لقبه قالون لجودة قراءته، مات سنة (٢٢٠)، انظر: ابن حبان، محمد
بن حبان بن أحمد، الثقات، ط ١، ١٣٩٥ هـ، دار الفكر، بيروت (٨/٤٩٣)، الذهبي، معرفة القراء الكبار
(١/١٥٥)، الذهبي، ميزان الاعتدال (٣/٣٢٧).

(٧) ولمعرفة أدلة الجمهور وحججهم انظر: الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (ط، د، د)، دار المعرفة، بيروت (١/٢٥)، الرازي، فخر الدين
محمد بن عمر، التفسير الكبير، ط ١، ١٤٢١ هـ، دار الكتب العلمية بيروت (١/١٦١-١٦٤)، القرطبي،
الجامع لأحكام القرآن (١/٩٢-٩٣).

في أول كل سورة، فإن تكرار الآيات بلفظها قد وقع في كثير من القرآن، ولم يستدل مستدل على أن ذلك المكرر آية واحدة، وقد أبعده من لم يعدّها آية لا من الفاتحة، ولا من غيرها^(١) كأبي^(٢) وأنس^(٣) من الصحابة، ومالك^(٤)، وأبي حنيفة^(٥)، والثوري^(٦)، والأوزاعي^(٧) من الفقهاء، وكذلك قراء المدينة^(٨) والبصرة^(٩)

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل (١/٥١-٥٢)، الزمخشري، الكشاف (١/٢٥)، ابن عطية، المحرر الوجيز (١/٥٢-٥٣).

(٢) هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي أبو المنذر، شهد العقبة وبدرا، وكان عمر يقول: «أبي سيد المسلمين»، مات سنة (٣٠) في خلافة عثمان، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/٦٥)، ابن الأثير، أسد الغابة (١/٦١-٦٣)، ابن حجر، الإصابة (١/٣٥).

(٣) هو: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، وأحد المكثرين المكثرين من الرواية عنه، كان آخر الصحابة موتاً بالبصرة مات سنة (٩٠)، وله مائة سنة، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/١٠٩)، ابن الأثير، أسد الغابة (١/١٥١)، ابن حجر، الإصابة (١/١١١-١١٣).

(٤) هو: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة، قصده طلبه العلم من الآفاق، وازدحموا عليه، ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبهه في العلم، مات سنة (١٧٩)، انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، صفة الصفوة، ط ٢، ١٣٩٩هـ، دار المعرفة، بيروت. (٢/١٧٧)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٤/١٣٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٨/٤٨).

(٥) هو: النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي، عالم العراق، ولد في حياة صغار الصحابة، لم يثبت له حرف حرف عن أحد منهم، عني بطلب الآثار، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى والناس عليه عيال في ذلك، مات سنة (١٥٠)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٥/٤٠٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٦/٣٩٠)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٢٧/٨٩).

(٦) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، إمام الحفاظ مصنف كتاب "الجامع"، طلب العلم وهو حدث باعته والدته، مات سنة (١٦١)، انظر: الخطيب، أحمد بن علي أبو بكر البغدادي، تأريخ بغداد، (ط، د)، (د، ت)، دار الكتب العلمية، بيروت (٩/١٥١)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢/٣٨٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٩).

(٧) هو: عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى أبو عمرو الأوزاعي، عالم أهل الشام، كان كثير العلم والحديث والفقه، مات سنة (١٥٧)، انظر: ابن عساكر، تأريخ مدينة دمشق (٣٥/١٥٠)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧/١٠٧)، الصفدي، الوافي بالوفيات (١٨/١٢٣).

(٨) تقع المدينة المنورة في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية إلى الشمال من مكة المكرمة، وهي محاطة محاطة من الغرب بجبل الحجاج، ومن الشمال الغربي بجبل سلع، ومن الجنوب بجبل عير، ومن الشمال بجبل أحد، وتبلغ مساحتها ٥٠ كم^٢. انظر: الموسوعة العربية العالمية (المدينة).

(٩) البصرة مدينة عراقية تقع جنوب العراق بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات، وتتميز بموقعها الجغرافي الهام الهام حيث تعد البوابة الرئيسية للعراق من جهة الجنوب، وتعد ثاني أكبر المدن العراقية بعد بغداد، ويبلغ عدد سكانها ١,٥٤٠,٠٠٠ نسمة في إحصاء عام ١٩٧٧م. انظر: الموسوعة العربية العالمية (البصرة).

والشام^(١)، وهكذا لا وجه لعدّها بعض آية^(٢)؛ لأن ذلك تحكّم يردُّ عليه الرسم والتلاوة، وكذلك لا وجه لعدّها آية واحدة، وكررت للفصل بين السور كما ذهب إليه أحمد بن حنبل^(٣)، وداود^(٤)، وبعض الحنفية^(٥)؛ لأن هذه دعوى مجردة لا دليل عليها.

فإن استدلووا بما أخرجه أبو داود^(٦) بإسناد صحيح عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى نزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم»^(٧)،

(١) بلاد الشام هي المنطقة الممتدة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتمتد شرقاً إلى منطقة الجزيرة السورية شرق نهر الفرات، وتمتد شمالاً من بلاد الروم (تركيا) حالياً إلى حدود جزيرة العرب ومصر جنوباً، وتشتمل في الوقت الحاضر على سورية والأردن وفلسطين ولبنان، ويسمى سكان هذه المنطقة الشوام. الموسوعة العالمية العربية (الشام).

(٢) حكى هذا القول عن الإمام الشافعي في رواية عنه، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١ / ١٤٢)، الألويسي، محمود شكرى، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (ط، د)، (د، ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٣٩/١).

(٣) هو: أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله، المروزي ثم البغدادي، أحد الأئمة الأعلام، كان إمام المحدثين، صنف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، قيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث، مات سنة (٢٤١)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (١/٦٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٧)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٦/٢٢٦).

(٤) هو: داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان، الملقب بالظاهري، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، الإسلام، وإليه ينسب المذهب الظاهري، مات سنة (٢٧٠)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢/٢٥٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/٩٧)، ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية (١/٧٧).

(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف (١/٢٤-٢٥)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١ / ١٤٢)، الشوكاني، فتح القدير (١/٢٧).

(٦) هو: سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني أحد حفاظ الحديث وعلمه، طوف البلاد وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين، وجمع كتاب السنن، مات سنة (٢٧٥)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢/٤٠٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/٢٠٣)، الصفدي، الوافي بالوفيات (١٥/٢١٨).

(٧) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، في الصلاة، باب من جهر بسم الله الرحمن الرحيم (١/٢٠٩)، رقم (٧٨٨)، والطحاوي، أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، ١، ١٤٠٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (٣/٤٠٧)، رقم (١٣٧٦)، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، في السنن الكبرى، (ط، د)، ١٤١٤هـ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة (٢/٤٢)، رقم (٢٢٠٦)، وصححه الحاكم، محمد بن عبد الله، في المستدرک على الصحيحين، ط، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ووافقه الذهبي (١/٣٥٦)، رقم (٨٤٥)، والألباني، محمد ناصر الدين، في صحيح سنن أبي داود، ط، ١٤١٩هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

وأخرجه الحاكم^(١) في المستدرک.

فلا دليل في ذلك، فإن دلالتها على الفصل لا يستلزم أنها ليست بآية، لاعقلاً، ولا شرعاً، ولا عادة.

وهكذا لا وجه لعدّها آية مستقلة من الفاتحة دون غيرها^(٢)؛ لأنه إن استدل بالرسم فالرسم للبسملة في الفاتحة كالرسم لها في غيرها من السور، وإن استدل بغير ذلك فما هو؟.

إذا عرفت هذا فقد وقع الاتفاق^(٣) على أنها بعض آية في سورة النمل^(٤). والكلام على هذه [أ٢] الأقوال استدلالاً ورداً وترجيحاً وتصحيحاً مدون في مواضع بسطه^(٥).

ومتعلق الباء محذوف، وهو أقرأ، أو أتلو، أو نحو ذلك بما يناسب ما جُعِلت التسمية^(٦) مبدأً له، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره منع^(٧) الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم^(٨)،

(٢٢٣/١)، رقم (٧٨٨).

(١) هو: محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري، الحافظ إمام أهل الحديث في عصره، من مصنفاته المستدرک على الصحيحين، كان عالماً عارفاً واسع العلم، مات سنة (٤٠٥)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٨٠/٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦٢/١٧)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (١٩٣/١).

(٢) حكى هذا القول عن الإمام الشافعي في رواية عنه. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١ / ١٤٢).

(٣) ممن نقل الاتفاق القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١)، ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٢)، والألوسي، في روح المعاني (٣٩/١).

(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

(٥) انظر: الجرجاني، علي بن محمد الحسيني، في حاشيته على الكشاف للزمخشري (٢٤/١-٢٥)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١-٩٥)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٢).

(٦) في (ب) البسملة.

(٧) في (ب) على.

(٨) انظر: الطبري، جامع البيان (١١٥/١)، النحاس، أحمد بن محمد، معاني القرآن، ط ١، ١٤٠٨هـ، مركز إحياء التراث جامعة أم القرى، مكة المكرمة (١/ ٥٠-٥١)، الرازي، التفسير الكبير (١/ ٨٩)، القرطبي،

والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر ترجيح تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]؛ لأن ذلك المقام مقام القراءة، وكان^(١) الأمر بها أهم.

وقد اختلف أئمة النحو في المقدّر هل هو اسم أو فعل؟ فمن قدر الفعل نظر إلى كونه الأصل في العمل، ومن قدر الاسم نظر إلى ما فيه من الدلالة على الدوام والثبات^(٢).

والاسم أصله سِمٌّ حذفت لامه، و^(٣) لَمَّا كان من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون؛ زادوا في أوله الهمزة إذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالساكن على تقدير إمكان النطق به^(٤).

الجامع لأحكام القرآن (٩٩/١)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٥/١-١٤٦).

(١) في (ب) فكان الأمر.

(٢) قال ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم (١٤٥/١-١٤٦): «تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان، وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي، فلنقله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل أمراً وخبراً نحو: أبدأ ببسم الله أو ابتدأت ببسم الله، فلنقله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدَّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سَمَّيتَ قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم» أ. هـ.

(٣) في (ب) لما كان.

(٤) قال القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن (١٠١/١): «اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين، فقال البصريون: هو مشتق من السُّمُّ وهو العلو والرفعة، فقيل: اسم؛ لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به. وقال الكوفيون: إنه مشتق من السِّمَّة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له. والأول أصح؛ لأنه يقال في التصغير: سُمِّيُّ، وفي الجمع أسماء، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فلا يقال: وسيم، ولا أوسام. ويدل على صحته أيضاً فائدة الخلاف وهي: فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السِّمَّة يقول: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماءً وصفات، فإذا أفنأهم بقى بلا اسم ولا صفة، وهذا قول المعتزلة، وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة» أ. هـ.

والاسم هو اللفظ الدال على المسمى كما قاله الجمهور، ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة^(١)، وسيبويه^(٢)، والباقلاني^(٣)، وابن فورك^(٤)، وحكاه الرازي^(٥) عن الحشوية^(٦) والكرامية^(٧) والأشعرية^(٨) فقد غلط وجاء بما لا يعقل، ولا دل عليه نقل، وهو مدفوع بالعقل والنقل كما تقرر في مواطنه، والعلم الضروري حاصل

(١) هو: معمر بن المشنى التيمي أبو عبيدة، مولا هم البصري، النحوي، صاحب التصانيف. وتصانيفه تقارب مائتي مصنف، منها كتاب غريب القرآن و غريب الحديث وغيرها، مات سنة (٢٠٩)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٣٥/٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٩ / ٤٤٥)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٣٠).

(٢) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، وسيبويه بالفارسية معناها: رائحة التفاح، أخذ النحو عن الخليل ولازمه، ووضع كتابه المنسوب إليه، مات سنة (١٨٠)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣/٤٦٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٨ / ٣٥١)، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ط ١، ١٤٠٧هـ، جمعية إحياء التراث، الكويت (ص ٤٩).

(٣) هو: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المعروف بالباقلاني البصري، المتكلم المشهور، كان على مذهب أبي الحسن الأشعري، صنف التصانيف الكثيرة في علم الكلام وغيره، مات سنة (٤٠٣)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٤/٢٦٩)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٣/١٤٧).

(٤) هو: محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولي، الأديب النحوي، الواعظ الأصهباني، بلغت مصنفاته في أصول الفقه ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف، مات سنة (٤٠٦)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٤ / ٢٧٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٧/٢١٤)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (١/١٩٠).

(٥) هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الشافعي. فاق أهل زمانه في علم الكلام، له تصانيف عديدة منها تفسير القرآن الكريم، مات سنة (٦٠٦)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٤ / ٢٤٨)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢١/٥٠٠)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (٢/٦٥).

(٦) من الألفاظ التي أطلقت على أهل السنة والجماعة، والذي أطلقها أعدائهم، وذلك حين رأوا أن منهجهم التمسك بالكتاب والسنة في مسائل الاعتقاد. انظر: الحرّاني، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، بيان تلبیس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ط ١، ١٣٩٢م، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة (١/٢٤٢-٢٤٥) بتصرف.

(٧) إحدى فرق المرجئة أصحاب محمد بن كرام، أحد شيوخهم ومصنف كتبهم، وهم الذين يقولون: إن الإيمان قول باللسان دون معرفة القلب، فمن نطق بلسانه ولم يعترف بقلبه، فهو مؤمن، وزعموا أن المنافقين كانوا مؤمنين بالحقيقة. انظر: اليميني، أبو محمد، عقائد الثلاث والسبعين فرقة، ط ١، ١٤١٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة (٢/٢٧٥).

(٨) فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري، اتخذت البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة لمحاكاة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم. انظر: الجهني، د: مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط ٤، ١٤٢٠هـ، دار الندوة العالمية، الرياض (١/٨٧).

لكل عاقل بأن الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله^(١).

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)^(٢)، وقال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى^(٣): ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

والله علم لذات الواجب^(٤) الوجود لم يطلق على غيرها^(٥)، وأصله إلاه إلاه حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت، وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق كالنجم، فإنه في الأصل لكل نجم في السماء، ثم غلب على الثريا، وكذلك الصَّعِقُ فإنه في الأصل لكل من أصابته الصاعقة، ثم غلب على رجل

(١) قال فخر الدين الرازي، في التفسير الكبير (١/٩٥): «قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم تقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى، وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث» أ. هـ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثبني في الإقرار والشروط.. (٢/٢٨٥)، رقم (٢٧٣٦)، ومسلم، في صحيح مسلم، في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى (٤/٢٠٦٢)، رقم (٢٦٧٧)، و الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، (ط، د)، (د، ت)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، في الدعوات، باب: حدثنا يوسف بن حماد (٥/٤٩٦)، رقم (٣٥٠٦)، جميعهم من حديث أبي هريرة ؓ بنحوه.

(٣) في (ب) وقال الله تعالى.

(٤) في (ب) واجب.

(٥) قال القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٢): «قوله: ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، لذلك لم يثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾، أي: من تسمى باسمه الذي هو ﴿الله﴾، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه. وقيل: معناه الذي يستحق أن يعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد» أ. هـ.

معروف فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، وبعد الحذف والتعويض من الأعلام المختصة [ب٢].

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، اسمان مشتقان من الرحمة على طريقة المبالغة، كما تدل عليه هاتان الصيغتان، ورحمان أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير^(١) ما يدل على أن هذا متفق عليه^(٢)، ولذلك قالوا: رحمان الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا.

ويؤيد ذلك ما تقرر عند أهل الفن من أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، وهما عربيان عند جمهور أهل اللغة.

وقال ابن الأنباري^(٣) والزجاج^(٤): إن الرحمن عبراني والرحيم عربي^(٥). واتفقوا على أن الرحمن لم يستعمل في غير الله سبحانه فهو من الصفات الغالبة^(٦)، ولا اعتبار بما وقع من بني حنيفة^(٧) من إطلاق الرحمن على

(١) هو: محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، كان رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع، علامة في التاريخ، له: جامع البيان، التفسير المشهور، واختلاف الفقهاء، وغيرها، مات سنة (٣١٠)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤)، السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، طبقات المفسرين، ط ١، ١٤٠٣ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (ص ٨٢)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٤٨).

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان (١٢٦/١-١٢٩).

(٣) هو: محمد بن القاسم بن محمد، أبو بكر بن الأنباري، من أعلم الناس بالنحو والأدب وأكثرهم حفظاً له، سمع من إسماعيل بن إسحاق القاضي وإبراهيم الحربي، وكان صدوقاً فاضلاً ديناً خيراً من أهل السنة، من مصنفاته: كتاب غريب الحديث، وكتاب الأضداد، وغيرها، مات سنة (٣٢٨)، انظر: الخطيب، تاريخ بغداد (٣/١٨١-١٨٢)، أبو يعلى، محمد بن محمد أبو الحسين، طبقات الحنابلة، (ط، د)، (د، ت)، دار المعرفة، بيروت (٢/٦٨)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٤/٢٤٥).

(٤) هو: إبراهيم بن محمد بن السري أبو إسحاق الزجاج البغدادي، نحوي زمانه مصنف كتاب معاني القرآن، وله تأليف جملة، مات سنة (٣١١)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (١/٤٩)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٦٠)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٥١).

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٤)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٤٩)، وأما القول بأن الرحمن عبراني، قول ضعيف لا يعول عليه؛ لأن ما في القرآن عربي، وقد ضعف هذا القول النحاس، في معاني القرآن (١/٥٦)، قال: «وهذا القول مرغوب عنه» أ. هـ.

(٦) قال القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٦): «أكثر العلماء على أن (الرحمن) مختص بالله عزوجل، لا يجوز أن يسمى به غيره، ألا تراه قال: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره. وقد تجاسر مسيلمة الكذاب - لعنه الله - فتسمى برحمان اليمامة، ولم يتسم به حتى قزع مسامعه نعت الكذاب فألزمه الله تعالى نعت الكذاب لذلك، وإن كان كل كافر كاذباً، فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علماً يعرف به، ألزمه الله إياه» أ. هـ بتصرف.

(٧) قوم أكثرهم نزلوا اليمامة، وكانوا قد تبعوا مسيلمة الكذاب المتنبئ، ثم أسلموا زمن أبي بكر رضي الله عنه،

مسيلمة الكذاب^(١).

قال أبو علي الفارسي^(٢): الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]^(٣) انتهى.

ولا يخفك أن هذا الدليل الذي أورده لا يتنهض للحجبة؛ لأن^(٤) كونه رحيمًا بالمؤمنين لا يستلزم أن لا يكون رحيمًا بغيرهم.

والظاهر أنه سبحانه رحيمٌ بكل عباده، ولكل مخلوقاته، فهو الذي وسعت رحمته كل شيء^(٥)، وهو الذي سبقت رحمته غضبه^(٦).

وقد تقرر في علم الإعراب أن فعيلًا من صيغ المبالغة، فحق المبالغة أن يكون رحيمًا بكل شيء، ولكل شيء.

واعلم أنه قد ورد في فضل البسمة أحاديث، فمنها ما أخرجه ابن أبي

والنسبة إليهم الحنفي: بفتح الحاء المهملة والنون وفي آخرها الفاء. السمعاني، عبد الكريم بن منصور التميمي، الأنساب، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الجنان، بيروت (٢ / ٢٨٠) بتصرف.

(١) هو: مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي، أبو ثمامة: المتنبئ الكذاب، ولد ونشأ باليمامة، في القرية المسماة اليوم بالجبيلة، بقرب (العيينة) بوادي حنيفة، في نجد، وتلقب في الجاهلية بالرحمن، وعرف برحمان اليمامة، قتله خالد بن الوليد في زمن أبي بكر الصديق، سنة (١٢)، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (٦٢/٤١٥)، ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد، الكامل في التأريخ، ط ٢، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (١٦٨/٢)، الزركلي، الأعلام (٧ / ٢٢٦).

(٢) هو: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الفسوي، إمام وقته في علم النحو صاحب التصانيف، له كتاب الحجية في علل القراءات، مات سنة (٣٧٧)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢/٨٠)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦ / ٣٧٩)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٢٠٥).

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (١/٥٩)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٥)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٤٩).

(٤) في (ب) لأنه.

(٥) قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

(٦) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٤/٣٨٨)، رقم (٧٤٢٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي).

حاتم^(١) في تفسيره، والحاكم في المستدرک وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، أن عثمان بن عفان^(٢) سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: (هو اسم من أسماء الله^(٣))، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب^(٤).

وأخرج سعيد بن منصور^(٥) في سننه، وابن خزيمة^(٦) في كتاب البسمة،

(١) هو: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي أبو محمد ابن الإمام الحافظ أبو حاتم، رحل في طلب الحديث إلى البلاد مع أبيه وبعده، وصنف التصانيف منها كتاب الجرح والتعديل والتفسير، مات سنة (٣٢٧)، انظر: أبو يعلى، طبقات الحنابلة (٥٥/٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٦٣/١٣)، الذهبي، ميزان الاعتدال (٥٨٧/٢).

(٢) هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي الأموي، يكنى أبا عبد الله، ولد في السنة السادسة بعد الفيل. زوجه رسول الله ﷺ ابنته: رقية ثم أم كلثوم، بويع له بالخلافة بعد عمر بن الخطاب، قتل سنة (٣٥)، ودفن ليلاً بموضع يقال له: حش كوكب، وكان قد اشتراه وزاده في البقيع، فكان أول من دفن فيه، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١٠٣٧/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٥٨٤/٣)، ابن حجر، الإصابة (٤٢٥/٣).

(٣) في (ب) الله تعالى.

(٤) أخرجه الرازي، عبد الرحمن بن محمد، في تفسير ابن أبي حاتم، (ط، د)، (د، ت)، المكتبة العصرية، صيدا. (٢٥/١)، رقم (١٥٣٠١)، والحاكم، في المستدرک على الصحيحين (٧٣٨/١)، رقم (٢٠٢٧)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي، في شعب الإيمان (٤٣٧/٢)، رقم (٢٣٢٧)، جميعهم من طريق زيد بن المبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندي حدثني أبي عن طاوس عن ابن عباس، أن عثمان بن عفان وذكر الحديث، قال الرازي، عبد الرحمن ابن أبي حاتم، في علل الحديث، (ط، د)، ١٤٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت. (١٧٨/٢): «سألت أبي عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث منكر»، وفي رواية: أخرجها العقيلي، محمد بن عمر بن موسى، في الضعفاء الكبير، ١، ١٤٠٤هـ، دار المكتبة العلمية، بيروت (١٦٢/٢)، رقم (٦٧٠)، والخطيب، في تاريخ بغداد (٣١٣/٧)، رقم (٣٨٢٦)، عن زيد بن مبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندعي عن بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان، قال العقيلي، في الضعفاء الكبير (١٦٢/٢): «سلام بن وهب الجندعي عن بن طاوس لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به»، وقال الذهبي، في الميزان (١٨٢/٢): «سلام بن وهب الجندي عن ابن طاوس خبر منكر، بل كذب».

(٥) هو: سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني أبو عثمان المروزي المكي، مؤلف كتاب السنن، سمع بخراسان والحجاز والعراق ومصر والجزيرة وغيرها، ثم جاور بمكة إلى أن مات بها سنة (٢٢٧)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٥٠٢/٥)، المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (٧٧/١١)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥٨٦/١٠).

(٦) هو: محمد بن إسحاق بن خزيمة الحافظ الحجة أبو بكر السلمى النيسابوري الشافعي صاحب الصحيح، عني

البسمة، والبيهقي عن ابن عباس قال: «استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم»^(١).

وأخرج الدارقطني^(٢) بسند ضعيف عن ابن عمر^(٣) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (كان جبريل^(٤) إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ بسم الله الرحمن الرحيم)^(٥).

وفي الباب أحاديث منها ما هو موضوع، ومنها ما هو ضعيف شديد الضعف.

وفي نزولها من عند رب العالم إلى رسوله المصطفى على لسان أمينه جبريل^(٦) في أول كل سورة ما يكفي في شرفها وفضلها، وأي شرف وفضل أجل وأعظم من هذا!.

ومع هذا فقد ورد الشرع بالتعبُّد بها في مواطن كعند الذبيحة^(٧)، وعند

بالحديث والفقهاء، حتى صار يضرب به المثل في العلم والإتقان، مات سنة (٣١١)، انظر: ابن حبان، الثقات (١٥٦/٩)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٦٥/١٤)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (٩٩/١).

(١) أخرجه البيهقي، في السنن الكبرى (٥٠/٢)، رقم (٢٢٤١)، من طريق محمد بن جعفر بن أبي كثير أخبرني عمر بن ذر بن عبد الله عن أبيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فذكره، قال البيهقي: «منقطع».

(٢) هو: علي بن عمر بن أحمد أبو الحسن البغدادي الدارقطني الحافظ الكبير، صاحب المصنفات، منها كتاب السنن والعلل، مات سنة (٣٨٥)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٩٧/٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٤٩/١٦)، السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، ط ٢، ١٤١٣ هـ، دار هجر. (٢٥٩/٥).

(٣) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أبو عبد الرحمن، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، أول مشاهده الخندق، كان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ، مات بمكة سنة (٧٣)، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٩٥٠/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٣٤٠/٣)، ابن حجر، الإصابة (٢٥٣/٣).

(٤) في (ب) جبرائيل.

(٥) أخرجه الطبراني، في الأوسط (١١/٤)، رقم (٣٤٨٠)، والدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، (ط)، (د)، ١٣٨٦ هـ، دار المعرفة، بيروت. (٣٠٥/١)، رقم (١٣)، وضعفه السيوطي، في الإتقان (٢١٩/١)، والشوكاني، في فتح القدير (٢٩/١).

(٦) في (ب) جبرائيل.

(٧) أخرج البخاري، الجامع الصحيح، في العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٣١١/١)، رقم

الوضوء^(١)، وعند الأكل^(٢)، وعند الجماع^(٣). بل ورد مشروعيتها عند كل [٣] أمر يشرع فيه الإنسان^(٤).

﴿وَالْعَصْرُ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢].

اختلف المفسرون في العصر هذا الذي أقسم الله^(٥) به، فقيل: هو الدهر^(٦) لما فيه من العبر التي تظهر فيه على تعاقب الليل والنهار، مع ما فيها من الدلالة البينة على الصانع سبحانه، وعلى توحيدِهِ. والعرب تطلق على

(٩٨٥)، ومسلم، صحيح مسلم، في الأضاحي، باب وقتها (٣/١٥٥١)، رقم (١٩٦٨)، كلاهما من حديث عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: شهدت الأضحى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى صلاته بالناس نظر إلى غنم قد ذبحت فقال: (من ذبح قبل الصلاة فليذبح شاة مكانها، ومن لم يكن ذبح، فليذبح على اسم الله).

(١) أخرج أبو داود، سنن أبي داود، في الطهارة، باب التسمية على الوضوء (١/٢٥)، رقم (١٠١)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، في الطهارة وسننها، باب ماجاء في التسمية في الوضوء (١/١٤٠)، رقم (٣٩٨)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله تعالى عليه)، والحديث صححه الحاكم، في المستدرک على الصحيحين (١/٢٤٦)، رقم (٥١٩)، والألباني، في صحيح سنن أبي داود (١/٣٧)، رقم (١٠١).

(٢) أخرج البخاري، الجامع الصحيح، في الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٣/٤٣١)، رقم (٥٣٧٦)، ومسلم، صحيح مسلم، في الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٣/١٥٩٧)، رقم (٢٠٢٢)، كلاهما من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك)، فما زالت تلك طعمتي بعد.

(٣) أخرج البخاري، الجامع الصحيح، في النكاح، باب مايقول الرجل إذا أتى أهله (٣/٣٧٨)، رقم (٥١٦٥)، ومسلم، صحيح مسلم، في النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (٣/١٠٥٨)، رقم (١٤٣٤)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله: باسم الله اللهم جنبني الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما في ذلك أو قضى ولد، لم يضره شيطان أبداً).

(٤) لمعرفة المزيد من المواطن التي تشرع فيها البسملة، انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٩٧-٩٨)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٤٥).

(٥) في (ب) أقسم الله تعالى به.

(٦) انظر: الطبري، جامع البيان (٢٤/٦١٢)، البغوي، معالم التنزيل (٨/٥٢٥) ابن الجوزي، زاد المسير (٨/٣٠٣)، السيوطي، الدر المنثور (١٥/٦٤٣)، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وزيد بن أسلم والفراء وابن قتيبة.

الليل والنهار أنهما عصرٌ، وعلى كل واحد منهما أنه عصرٌ، ومنه قول حميد بن ثور^(١) :

ولم ينته العصران: يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يُدركا ما تمنيا^(٢)
وأطلقوا على الغداة أنها عصر، وعلى العشيء أنه عصر، ومنه قول الشاعر :

وأَمَطَّه العَصْرِينِ حَتَّى يَمَلَنِي وَيَرْضَى بِنَصْفِ الدَّيْنِ وَالْأَنْفِ رَاغِمٌ^(٣)
وأطلقوا العصر أيضاً على العشيء، وما بين زوال الشمس إلى غروبها.
ومنه قول الشاعر:

يروح بنا عمرو وقد قَصَّرَ العَصْرُ وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر^(٤)
فالعصر يطلق على كل واحد من هذه، ولاوجه لمن ذهب إلى تخصيص واحد منها دون غيره^(٥)، كما روي عن قتادة

(١) هو: حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر بن أبي ربيعة أبو المثنى، أحد المخضرمين من الشعراء، أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم وقدم على النبي ﷺ وأنشده بعض قصائده، أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال الشعر في أيامه، مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٣٧٧/١)، ابن الأثير، أسد الغابة (٥٩/٢)، ابن حجر، الإصابة (١٢٦/٢).

(٢) انظر البيت في: الميمني، عبد العزيز، ديوان حميد بن ثور الهلالي، (ط، د)، ١٩٥١م، مصور عن دار الكتب العلمية، بيروت (ص٨)، الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، (ط، د)، (د، ت)، دار الصادق (١٣/٢)، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (ط، د)، (د، ت)، دار الكتب العلمية، بيروت (٣٤١/٤).

(٣) انظر البيت بلا عزو عند: ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، في إصلاح المنطق، ط٤، (د، ت)، دار المعارف (ص٣٩٥)، السيرافي، يوسف بن الحسن، في شرح أبيات إصلاح المنطق، ط١، ١٤١٢هـ، الدار المتحدة (ص٥٩٥)، ابن الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد، في الأضداد، (ط، د)، ١٩٦٠م، دار المطبوعات والنشر الكويت (ص٢٠٢).

(٤) انظر البيت بلا نسبة عند: الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو، في العين، (ط، د)، ١٤٠٥هـ، دار الهجرة، إيران (٢٩٣/١)، الماوردي، علي بن محمد، في النكت والعيون، ط٢، ١٤٢٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٣٣٣/٦)، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، في لسان العرب، ط٤، ٢٠٠٥م، دار صادر (١٧٠/١٠).

(٥) وهذا ما رجحه الطبري، في جامع البيان (٦١٢/٢٤)، قال: «والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن ربنا

والحسن^(١) أن المراد به في هذه الآية العشي^(٢).

وروي عن قتادة أنه آخر ساعةٍ من ساعات النهار^(٣).

والظاهر في هذه الآية أن المراد به الدهر لعدم التقييد بما يشعر ببعض الأوقات دون بعض.

وقد استبعد قوم وقوع الإقسام منه سبحانه بالعصر بمعنى الدهر.

فقال مقاتل^(٤): المراد به صلاة العصر^(٥)، وهي الصلاة الوسطى، فقدّر مضافاً محذوفاً، وقيل: هو قسمٌ بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكونه أشرف العصور، وأفضل أجزاء الدهر^(٦).

وقال الزجاج: قال بعضهم: معناه ورب العصر^(٧).

أقسم بالعصر (وَالْعَصْرِ)، اسم للدهر، وهو العشيّ والليل والنهار، ولم يخص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزمه هذا الاسم، فداخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه.

(١) هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، من سادات التابعين، جمع كل فن من علم وزهد، ولد في خلافة عمر وحنكه عمر بيده، روى أن ثدي أم سلمة در عليه ورضعها غير مرة، رأى عثمان وطلحة والكبار، مات سنة (١١٠)، انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط ١، ١٣٥٨هـ، دار صادر، بيروت (١٣٦/٧)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٦٩/٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤).

(٢) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٩٤/٢)، الطبري، جامع البيان (٦١٢/٢٤)، ابن الجوزي، زاد المسير (٣٠٣/٨)، السيوطي، الدر المنثور (٦٤٣/١٥).

(٣) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٩٤/٢)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٦٢/١٠)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٢٠)، السيوطي، الدر المنثور (٦٤٤/١٥).

(٤) هو: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء الخراساني البلخي أبو الحسن، كان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور، قال الذهبي: يروي على ضعفه البين عن مجاهد والضحاك... مات بعد سنة (١٥٠) بقليل، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (١٢٦/٨)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٥٥/٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠١/٧).

(٥) انظر: البلخي، مقاتل بن سليمان بن بشير، تفسير مقاتل بن سليمان، ط ١، ١٤٢٤ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٥١٦/٣)، البغوي، معالم التنزيل (٥٢٢/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٣٦١/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٣٠٣/٨).

(٦) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦٩٩/٥).

(٧) انظر: الزجاج، إبراهيم بن محمد، معاني القرآن وإعرابه، (ط، د)، ١٤٢٤ هـ، دار الحديث، القاهرة،

ولا يخفك أنه لا وجه لشيء من هذه التقديرات، والله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يحتاج مثل ذلك إلى التعليل يكون للمقسم به شرفٌ وفضلٌ^(١)، فالرب سبحانه لا يُسألُ عما يفعل.

وقد أقسم بالعاديات^(٢) وهي الخيل العادية في الغزو^(٣).

وأقسم بالمرسلات^(٤) وهي الرياح في قول جمهور المفسرين^(٥).

وقيل: هي الملائكة، وقيل^(٦) الأنبياء، وقيل السحاب^(٧)، والأول أولى^(٨).

وأقسم أيضاً بالعاصفات وهي الرياح الشديدة، وأقسم أيضاً بالناشرات وهي الرياح أيضاً، وأقسم أيضاً بالفارقات وهي [ب] الرياح. وقيل: الملائكة.

(٥/٢٧٥)، البغوي، معالم التنزيل (٨/٥٢٢)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٧٩).

(١) الصواب: (شرفٌ وفضلٌ)، وفي السختين من المخطوط: (شرفاً وفضلاً) والصواب ما أثبتناه؛ لأن شرف اسم يكون وفضل معطوف عليه، وهذا الموافق لقواعد النحو. انظر: المرادي بدر الدين حسن بن قاسم المصري، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (١/٤٩٢)، شرح وتحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر، ط١، ١٤٢٨هـ، دار الفكر العربي.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١].

(٣) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٢/٣٩٠)، الطبري، جامع البيان (٢٤/٥٧٠-٥٧٢)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٥٧)، ابن الجوزي، زاد المسير (٨/٢٩٥). وهو قول: ابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، وقتادة، وعطية، والضحاك، والربيع.

(٤) قال الله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥].

(٥) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٢/٣٤٠)، الطبري، جامع البيان (٢٤/١٢٢)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٩٢)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٥٤).

(٦) في نسخة (ب) وقيل: هي الأنبياء.

(٧) انظر: هذه الأقوال والقائلين بها في: الطبري، جامع البيان (٢٤/١٢٢-١٢٣)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٩٢)، ابن عطية، المحرر الوجيز (١٦/١٩٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٨/١٥٣-١٥٤).

(٨) قال الطبري، في جامع البيان (٢٤/١٢٤-١٢٥): «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفاً، وقد ترسل عرفاً الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدلّ على أن المعنيّ بذلك أحد الجزئين دون الآخر، وقد عمّ جلّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكلّ من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلًا» أ. هـ.

وأقسم أيضاً بالملقيات ذكراً وهي الملائكة^(١).

وأقسم أيضاً بـ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥]، وهي الملائكة.

والعطف مع اتحاد الكل، لتنزيل التغيرات الوصفية منزلة التغيرات الذاتية كما في قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام^(٢).

هكذا قال الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم^(٣).

وقال السُّدِّي^(٤): النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور^(٥)، وقال وقال مجاهد^(٦): هي الموت ينزع النفس^(٧)، وقال قتادة: هي النجوم تُنزع

(١) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٤٠/٢)، الطبري، جامع البيان (١٢٤/٢٤-١٢٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (١٩٦/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (١٥٤/٨).

(٢) انظر البيت بلا نسبة عند: الفراء، يحيى بن زياد، في معاني القرآن، (ط، د)، (د، ت)، دار السرور (١٠٥/١)، والأنباري، عبد الرحمن بن محمد، في الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، (ط، د)، (د، ت)، دار الفكر، دمشق (٤٦٩/٢)، والبغدادي، عبد القادر بن عمر، في خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ط ٤، ١٤١٨ هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة. (٤٥١/١).

(٣) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٤٠/٢)، الطبري، جامع البيان (٥٧/٢٤-٦٤)، الرازي، ابن أبي حاتم (٣٣٩٧/١٠)، البغوي، معالم التنزيل (٣٢٣-٣٢٥/٨)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩٧/٨).

(٤) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور أحد موالي موالي قريش، حدث عن أنس بن مالك وابن عباس، ورد أنه رأى أبا هريرة والحسن بن علي، مات سنة (١٢٧)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٣٢٣/٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٦٤/٥)، الأذنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٥).

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان (٥٩/٢٤)، الرازي، ابن أبي حاتم (٣٣٩٨/١٠)، ابن الجوزي، زاد المسير (١٦٩/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٠/١٩).

(٦) هو: مجاهد بن جبر الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج المكي الأسود، روى عن ابن عباس فأكثر، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقهاء، وعن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، مات سنة (١٠٣)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (٩٤/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤)، الذهبي، معرفة القراء الكبار (٦٦/١).

(٧) انظر: الطبري، جامع البيان (٥٨/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٣٢٣/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (١٦٩/٨)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩٧/٨).

من أفق إلى أفق^(١)، وبه قال الأخفش^(٢)، وأبو عبيدة، وابن كيسان^(٣).
وقال عطاء^(٤) وعكرمة^(٥): هي القسيُّ تُنزع بالسهم^(٦)، وإغراق^(٧) النازع
النازع في القوس أن يمدّه غاية المد، حتى ينتهي إلى النَّصل. وقيل: أراد
بالنازعات الغزاة الرماة^(٨).

وأقسم سبحانه بالنجم^(٩)، وأقسم سبحانه بالسماء ذات البروج، وباليوم

(١) انظر: جامع البيان (٥٩/٢٤)، المحرر الوجيز (٢١٨/١٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٩)، تفسير ابن كثير (٣٦٩٧ / ٨).

(٢) هو: سعيد بن مسعدة المجاشعي النحوي البجلي المعروف بالأخفش الأوسط أبو الحسن، أحد نحاة البصرة، له من الكتب المصنفة كتاب الأوسط في النحو وكتاب تفسير معاني القرآن، مات سنة (٢١٥)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠٦/١٠)، السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة، (ط، د)، ١٣٨٤هـ، المكتبة العصرية، بيروت (١/٥٩٠)، الأدنه وي طبقات المفسرين (ص ٣١).

(٣) هو: محمد بن أحمد بن كيسان أبو الحسن النحوي اللغوي، أحد المذكورين بالعلم والموصوفين بالفهم له الأقوال المشهورة في التفاسير ومعاني الآيات، ومن مصنفاته: المهذب في النحو، غلط أدب الكاتب، مات سنة (٢٩٩)، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات (٢٤/٢)، كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط ١، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (٣ / ٩٢)، الزركلي، الأعلام (٣٠٨/٥).

(٤) هو: عطاء بن أبي رباح أبو محمد القرشي مولاهم المكي، عمي في آخر عمره، وكان فصيحاً عالماً فقيهاً إليه انتهت فتوى مكة، سمع ابن عباس وعبد الله بن الزبير وخلقاً كثيراً من الصحابة، مات سنة (١١٥)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (١٦٥/٧)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٦١/٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧٨/٥).

(٥) هو: عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله القرشي مولاهم المدني البربري الأصل، حدث عن ابن عباس وعائشة وعائشة وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وكان أعلم تلاميذ ابن عباس بالتفسير، مات سنة (١٠٥)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٣٨٥/٢)، المزي، تهذيب الكمال (٢٠/٢٦٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/٥).

(٦) انظر: الطبري، جامع البيان (٥٩/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٣٢٤/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢١٨/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (١٧٠/٨).

(٧) في النسختين من المخطوط (وإغراق النازع)، والصواب: (وإغراق النازع)، كما عند القرطبي، في الجامع الأحكام القرآن (١٩١/١٩)، والشوكاني، في فتح القدير (٥٢٤/٥)، حيث يوجد النص كاملاً.

(٨) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٣٢٤/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (١٧٠/٨)، وهذا القول محكي عن الثعلبي.

(٩) قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

الموعود^(١)، وهو يوم القيامة في قول جميع المفسرين^(٢)، وبالشاهد والمشهود، والمراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي يحضر فيه، والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب^(٣).

وقيل: المراد بالشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة^(٤).

قال الواحدي^(٥): وهذا^(٦) قول الأكثر^(٧)، وحكى القشيري^(٨) عن ابن عمر، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى^(٩).

(١) قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمُ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣].

(٢) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٦١/٢)، الطبري، جامع البيان (٢٦٢/٢٤-٢٦٣)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤١٣/١٠)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٣/١٩).

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥٨٢/٥).

(٤) ثبت تفسير ذلك عن النبي ﷺ، ولهذا فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره، وهذا ما رجحه الشوكاني كما سيأتي، سيأتي، فقد أخرج الترمذي، سنن الترمذي، في التفسير، باب: تفسير سورة البروج (٤٠٦/٥)، رقم (٣٣٣٩)، والطبراني، في الأوسط (١٨/٢)، رقم (١٠٨٧)، والبيهقي، في السنن الكبرى (١٧٠/٣)، رقم (٥٣٥٣)، جميعهم من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة)، وحسنه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، ط ١، ١٤٢٠هـ، مكتبة المعارف، الرياض (٣/٣٦٦)، رقم (٣٣٣٩).

(٥) هو: علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي أبو الحسن، صنف التفاسير الثلاثة البسيط والوسيط والوجيز وكتاب أسباب النزول وغيرها، مات سنة (٤٦٨)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣٠٣/٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٨)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (١/٢٥٦).

(٦) في (ب) وهو قول.

(٧) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٦١/٢)، الطبري، جامع البيان (٢٦٤/٢٤)، الواحدي، الوجيز (١١٨٩/٢)، البغوي، معالم التنزيل (٣٨١/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨).

(٨) هو: عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن أبو نصر القشيري، من أئمة المسلمين، قرأ الأصول على والده، وكان إماماً في التفسير والوعظ ورزق من ذلك حظاً وافراً، جلس للوعظ والتدريس، مات سنة (٥١٤)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٢٤/١٩)، الصفدي، الوافي بالوفيات (١٨/٢٠٠)، السيوطي، طبقات المفسرين (ص ٥٥).

(٩) انظر: الطبري، جامع البيان (٢٦٩/٢٤)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٤/١٩)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨/٣٧٤٤).

وقال سعيد بن جبير^(١) : الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة^(٢) .
 وقال النخعي^(٣) : الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر^(٤)، وقيل : الشاهد
 الشاهد هو الله سبحانه^(٥)، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير؛ لقوله: ﴿وَكَفَى
 بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم^(٦) لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ
 كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا
 النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وقوله: ﴿وَيَكُونُ
 الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل : الشاهد جميع الأنبياء^(٧) لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

(١) هو: سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء أبو عبد الله، أحد أعلام التابعين، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وابن عمرو وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة، وكان يختم القرآن كل ليلتين، ويخرج في كل سنة مرتين مرة للحج ومرة للعمرة، قتل شهيداً على يدي الحجاج سنة (٩٥)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (٦/٧)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣٧١/٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٢١/٤).

(٢) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٤/١٩)، وقد نقل جميعهم هذا القول عن سعيد بن المسيب، فلعله سبق قلم من المصنف رحمه الله.

(٣) هو: إبراهيم بن يزيد بن الأسود أبو عمران النخعي اليماني، ثم الكوفي الإمام الحافظ فقيه العراق. كان إماماً في في الفقه يعظمه الأكابر، وكان سعيد بن جبير يقول: أتستفتوني وفيكم إبراهيم؟ مات سنة (٩٦)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٢٧٠/٦)، ابن الجوزي، المنتظم (٢٠/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥٢٠/٤).

(٤) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٤/١٩).

(٥) البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩)، ونقل الطبري، في جامع البيان (٢٦٩/٢٤) هذا القول عن ابن عباس.

(٦) نظر: الطبري، جامع البيان (٢٦٦/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩)، وقال به: ابن عباس والحسن بن علي والضحاك وعبد العزيز بن يحيى.

(٧) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٣٨٣/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٧/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام

بشَهِيدٍ ﴿ [النساء: ٤١] ، وقيل: هو عيسى بن مريم^(١) لقوله: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقيل: الشاهد آدم، والمشهود ذريته^(٢).

وقال محمد بن كعب^(٣): الشاهد الإنسان^(٤) كقوله^(٥): ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال مقاتل: أعضاؤه^(٦) لقوله: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ [١٤] أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] ، وقال الحسين بن الفضل^(٧): الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم^(٨)؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشاهد الحفظ^(٩)، والمشهود بنو آدم^(٩)،

القرآن (٢٨٥/١٩).

(١) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٧/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩).

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، الشوكاني، فتح القدير (٥٨٢/٥).

(٣) هو: محمد بن كعب بن سليم الإمام العلامة أبو حمزة القرظي المدني من حلفاء الأوس، حدث عن أبي هريرة ومعاوية وزيد بن أرقم وابن عباس، كان إماماً في التفسير، مات سنة (١٠٨)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٤١٩/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٦٥/٥)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٩).

(٤) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩).

(٥) في (ب) لقوله.

(٦) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩)، الشوكاني، فتح القدير (٥٨٢/٥).

(٧) هو: الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي ثم النيسابوري أبو علي، المفسر الأديب إمام عصره في معاني القرآن، مات سنة (٢٨٢)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤١٤/١٣)، السيوطي، طبقات المفسرين (ص ٣٧)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٤٠).

(٨) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٣٨٢/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٩/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٧١/٨).

(٩) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢١٦/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩)، الشوكاني، فتح القدير (٥٨٣/٥).

وقيل: الأيام والليالي^(١)، وقيل: الشاهد الخلقُ يشهدون لله عز وجل^(٢).

ولا يخفأك أن إثبات الشهادة لشيء في الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة لا يدل على أنه المراد في هذه الآية، فالأدلة التي ذكرها هؤلاء لا تصح لما أرادوه.

وقد ذكرت في (فتح القدير)^(٣) ما أورده هؤلاء المختلفون من الأدلة المروية. من طريق الصحابة فمن بعدهم، ثم تعقبت ذلك بما تعقبته، ورجّحت ما انتهض دليله، فليُرجع إليه^(٤)، فليس هذا المقام مقام بسط الكلام على ذلك.

وأقسم سبحانه بالسماء والطارق، ثم بيّن الطارق بقوله: وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب^(٥).

وأقسم سبحانه بالفجر وهو الوقت المعروف^(٦)، وقال قتادة: إنه فجر أول أول يوم من شهر محرّم؛ لأنها تنفجر منه السنة^(٧)، ولا وجه لهذا.

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٥/١٩)، الشوكاني، فتح فتح القدير (٥٨٣/٥).

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٨/١٦)، الشوكاني، فتح القدير (٥٨٣/٥).

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥٨٨-٥٨٩/٥).

(٤) قال الشوكاني، في فتح القدير (٥٨٩/٥): «فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وأما اليوم الموعود، فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة».

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣].

(٦) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٤٤/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٢٣/١٠)، البغوي، معالم التنزيل التنزيل (٤١٥/٨)، السيوطي، الدر المنثور (٣٩٣/١٥).

(٧) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٨/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/٢٠)، وروي هذا القول أيضاً عن ابن عباس. انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٢/١٦)، السيوطي، الدر المنثور (٣٩٣/١٥).

وقال مجاهد: إنه يوم النحر^(١).
وقال الضحاك^(٢): فجر ذي الحجة^(٣)، وقيل: المعنى وصلاة الفجر^(٤)،
وقيل: المعنى: ورب الفجر^(٥)، ولا وجه لشيء من ذلك، والمراد القول
الأول^(٦).

وأقسم سبحانه بالليالي العشر، وهي عشر ذي الحجة في قول الجمهور^(٧)،
وقال الضحاك: إنها العشر الأواخر من رمضان^(٨).

وقيل: العشر الأول من المحرم^(٩)، والراجح الأول^(١٠)، ولا وجه لشيء
لشيء مما خالفه.

(١) انظر: الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٢٣/١٠)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٢/١٦)، القرطبي، الجامع
لأحكام القرآن (٣٨/٢٠).

(٢) هو: الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد، صاحب التفسير كان من أوعية العلم، حدث عن ابن عمر وأنس
بن مالك وغيرهم، مات سنة (١٠٢)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (١٠٠/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء
(٥٩٨/٤)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٠).

(٣) انظر: الهلالي، الضحاك بن مزاحم، تفسير الضحاك، ط ١٤١٩هـ، دار السلام، القاهرة، (٩٥٩/٢)،
البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٢/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير
(٢٣٨/٨).

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٤٤/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز
(٢٩٢/١٦)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٦٨/٨)، وقال به: ابن عباس في رواية عنه، وعكرمة،
و قتادة، وزيد ابن أسلم.

(٥) الشوكاني، فتح القدير (٦١٣/٥).

(٦) وهذا الذي رجحه الطبري، في جامع البيان (٣٤٤/٢٤)، قال رحمه الله: «هذا قسم، أقسم ربنا جل ثناؤه
بالفجر، وهو فجر الصبح».

(٧) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٦٩/٢)، الطبري، جامع البيان (٣٤٨-٣٤٥/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي
حاتم (٣٤٢٣/١٠)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨).

(٨) انظر: الهلالي، تفسير الضحاك (٩٦٠/٢)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز
(٢٩٢/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٨/٨).

(٩) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٤٨/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز
(٢٩٢/١٦)، وقال به: يمان بن رثاب.

(١٠) نقل الطبري، في جامع البيان (٣٤٨/٢٤): إجماع المفسرين على أن المراد بالليالي العشر، هي عشر ذي
الحجة.

وأقسم سبحانه بالشفع والوتر، وهما كل شفع من الأشياء المخلوقة، وكل وتر منها^(١).

وقال قتادة: الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها^(٢)، وقيل: الشفع يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر^(٣).

وقال مجاهد وعطية العوفي^(٤): الشفع الخلق، والوتر الله سبحانه^(٥).

وبه قال محمد بن سيرين^(٦)، ومسروق^(٧)، وأبو صالح^(٨)، وقتادة.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٥٥/٢٤)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٣/٥)، وهو قول مجاهد.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٥٣/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٦/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨)، الدر المنثور (٤٠٣/١٥).

(٣) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٨/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

(٤) هو: عطية بن سعد بن جنادة العوفي الكوفي أبو الحسن من مشاهير التابعين، ضعيف الحديث، روى عن ابن عباس وأبي سعيد وابن عمر، وكان شيعياً، مات سنة (١١١)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٣٠٤/٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٢٥/٥)، الأذنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٣).

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٥٢-٣٥٠/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٢٤/١٠)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٥/٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨).

(٦) هو: محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك، التابعي الإمام في التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا، سمع أبا هريرة وابن عباس وابن عمر وخلقاً سواهم، مات سنة (١١٠)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (١٨١/٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٦٠٦/٤)، الأذنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٤).

(٧) هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الإمام العلم أبو عائشة الوادعي الهمداني الكوفي، عداده في كبار التابعين، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ حدث عن عمر وعثمان وعلي وعائشة وغيرهم، مات سنة (٦٣)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٧٦/٦)، ابن الجوزي، المنتظم (١٩/٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٦٣/٤).

(٨) هو: عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم، أبو صالح المصري الجهني مولاهم، كاتب الليث بن سعد، صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة، حدث عن الليث بن سعد ومعاوية بن صالح، وروى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام ومحمد بن يحيى الذهلي، مات سنة (٢٢٢)، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (١٨٢/٢٩)، المزي، تهذيب الكمال (٩٨/١٥)، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر، تقريب التهذيب، ط ١، ١٤١٦هـ، دار العاصمة، الرياض (ص ٥١٥).

وقال الربيع بن أنس^(١)، وأبو العالية^(٢): هي صلاة المغرب، فيها ركعتان، والوتر الركعة^(٣).

وقال الضحاك: الشفع عشرُ ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة^(٤)، وبه قال عطاء.

وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وترًا فشُفِعَ بحواء^(٥)، وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر دركات النار، وهي سبع^(٦)، وبه قال الحسين^(٧) بن الفضل.

وقيل: الشفع الصفا والمروة^(٨)،

(١) هو: الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي، كان عالم مروفي زمانه، سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه، مات سنة (١٣٩)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٣٦٩/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦٩/٦)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص١٦).

(٢) هو: رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر أبو العالية الرياحي البصري، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، وسمع من عمر وعلي وابن مسعود وعائشة وغيرهم، مات سنة (٩٣)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (١١٢/٧)، ابن الجوزي، المنتظم (٢٩٧/٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠٧/٤).

(٣) انظر: الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٢٤/١٠)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠)، السيوطي، الدر المنثور (٤٠٣/١٥-٤٠٤).

(٤) انظر: الهاللي، تفسير الضحاك (٩٦٠/٢)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

(٥) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠)، وقال به: مقاتل بن سليمان.

(٦) انظر: البغوي، معالم التنزيل (٤١٦/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٤٠/٨).

(٧) في (ب) الحسن بن الفضل، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه؛ لنقل أئمة التفسير هذا القول عن الحسين بن الفضل. الفضل.

(٨) الصفا والمروة جبلان بين بطحاء مكة والمسجد، أما الصفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود، وأما المروة جبل مائل إلى الحمرة، وهي أكمة لطيفة في وسط مكة تحيط بها، وعليها دور أهل مكة ومنازلهم. الحموي، معجم البلدان (٤١١/٣)، (١١٦/٥) بتصرف.

والوتر الكعبة^(١)، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، [٤ب] والوتر اليوم الذي لا ليلة^(٢) بعده، وهو يوم القيامة^(٣).

وقال سفيان بن عيينة^(٤): الوتر هو الله سبحانه، وهو الشفع أيضاً لقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية^(٥).

وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما^(٦).

وقيل: الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر مسجد بيت المقدس^{(٧)(٨)}.

وقيل: الشفع حجُّ القران، والوتر الأفراد^(٩)، وقيل: الشفع الحيوان؛ لأنه لأنه ذكرٌ وأنثى، والوتر الجماد^(١٠)، وقيل: الشفع ما سُمي، والوتر ما لم

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٤٠/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠).

(٢) في (ب) لاليل بعده.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٤٠/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠).

(٤) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهالبي أبو محمد الكوفي ثم المكي، كان إماماً في التفسير، وله تفسير القرآن، مات سنة (١٩٨)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (٦٦١/١٠)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣٩١/٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٨).

(٥) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢٣٩/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

(٦) انظر: الطبري، جامع البيان (٣٥٥/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤١٦/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦).

(٧) القُدس مدينة مقدسة عند المسلمين. والاسم الشائع لها بعد الفتح الإسلامي هو: بيت المقدس، وهي عند المسلمين المكان الذي عُرج منه بالرسول ﷺ إلى السماء في ليلة الإسراء والمعراج، كما أنها تضم المسجد الأقصى، مساحتها ١٠٧ كم^٢، وعدد سكانها حوالي ١٠٠,٥٦٧ نسمة. الموسوعة العالمية (القدس).

(٨) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٤٠/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠).

(٩) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٩٣/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٤٠/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠).

(١٠) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

يسم (١).

وقد تعقبت هذه الأقوال في فتح القدير (٢).

فقلت: «ولا يخفأك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف، والخاطر الخاطيء، والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما (٣) يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، والوتر: الفرد، فالمراد بالآية إما نفس العدد، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفعٌ أو وترٌ».

وإذا قام دليل يدل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره» انتهى (٤).

وأقسم سبحانه في هذه السورة (٥) بالليل إذايسر (٦).

وأقسم سبحانه بالبلد بقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، فإن المعنى أقسم بهذا البلد؛ لأن (لا) زائدة كما في قوله سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١].

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦١٤/٥).

(٣) في (ب) مما يدل.

(٤) وهذا الذي ذهب إليه المصنف هو مارجحه الطبري، في جامع البيان (٣٥٥/٢٤)، قال رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل إنه داخل في قسمه هذا، لعموم قسمه بذلك».

(٥) سورة الفجر.

(٦) قال الطبري، في جامع البيان (٣٥٦/٢٤): «والليل إذا سار فذهب، يقال منه: سرى فلان ليلاً يسري: إذا

سار».

قال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسمٌ بالبلد الحرام، وهي مكة^(١).

وأقسم سبحانه بالوالد وما ولد، ف قيل: الوالد آدم، وما ولد أي وما تناسل من ذريته^(٢). وقال أبو عمران الجوني^(٣): الوالد إبراهيم، وما ولد ذريته^(٤).

وقيل: الوالد إبراهيم، والولد إسماعيل ومحمد صلى الله عليه^(٥) وسلم^(٦). وقال عكرمة، وسعيد بن جبير: ووالد يعني الذي يولد له، وما ولد يعني العاقر الذي لا يُولد له^(٧)، وكأنهما جعلاً ما نافية، وهو بعيد، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول، أي والذي ما ولد، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين.

وقال عطية العوفي: هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات^(٨)، الحيوانات^(٨)، وهذا أقرب هذه الأقوال إلى الصواب، وقد اختاره ابن

(١) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٧٣/٢)، الطبري، جامع البيان (٤٠١/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٣٢/١٠)، الواحدي، الوجيز (١٢٠٣/٢).

(٢) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٧٣/٢)، الطبري، جامع البيان (٤٠٦/٢٤-٤٠٧)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٣٣/١٠).

(٣) هو: عبد الملك بن حبيب البصري الإمام الثقة، رأى عمران بن حصين وروى عن جندب البجلي وأنس بن مالك وعبد الله بن الصامت وطائفة، مات سنة (١٢٣)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٢٣٨/٧)، ابن الجوزي، المنتظم (٢٢٣/٧)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٥٥/٥).

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان (٤٠٨/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٣٣/١٠)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦).

(٥) في (ب)، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٦) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٢٥١/٨)، الشوكاني، فتح القدير (٦٢٨/٥).

(٧) انظر: الطبري، جامع البيان (٤٠٦/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٣٣/١٠)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠-٦٢).

(٨) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦)، ابن الجوزي، زاد المسير (٢٥١/٨)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠).

جرير (١).

وأقسم سبحانه في سورة الشمس بالشمس وضحاها، وبالقمر والنهار
[٥]، والليل والسماء والأرض، والنفس وما سواها (٢).

وأقسم سبحانه في سورة الليل بالليل والنهار (٣)، والذكر والأنثى على
قراءة ابن مسعود (٤)، فإنه قرأ والذكر والأنثى (٥).

وأقسم سبحانه في سورة الضحى بالضحى والليل (٦).

وأقسم سبحانه في سورة التين (٧) بالتين والزيتون، قال أكثر المفسرين: هو
هو التين الذي يأكله الناس، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت (٨).

(١) قال الطبري، في جامع البيان (٤٠٨/٢٤): «والصواب من القول في ذلك: ما قاله الذين قالوا: إن الله أقسم بكلِّ والد
وولده، لأن الله عم كلِّ والد وما ولد، وغير جائز أن يخصَّ ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر، أو عقل،
ولا خبر بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمه» أ. هـ.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا
بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١-٧].

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١-٢].

(٤) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبد الرحمن الهذلي، أسلم قديماً، وكان يعرف بصاحب
السواك، شهد بدرًا والحديبية وهاجر الهجرتين جميعاً، مات بالمدينة سنة (٣٢)، ودفن بالقيع، انظر: ابن
عبد البر، الاستيعاب (٩٨٨/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٣٨٤/٣)، ابن حجر، الإصابة (٢٨٧/٣).

(٥) عن علقمة بن قيس النخعي قال: لقيت أبا الدرداء فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من أهل العراق. قال: من أيهم؟
قلت: من أهل الكوفة. قال: هل تقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود؟ قال: قلت: نعم. قال: فاقراً: ﴿وَاللَّيْلِ
إِذَا يَغْشَى﴾، قال: فقرأت: ﴿والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلَّى، والذكر والأنثى﴾، قال: فضحك، ثم قال:
هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها. أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في التفسير،
باب: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤٩٤٤)، ومسلم، صحيح مسلم، في صلاة المسافرين (٨٢٤) واللفظ له.

(٦) قال الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢].

(٧) قال الله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١-٢].

(٨) انظر: البلخي، تفسير مقاتل ابن سليمان (٤٩٨/٣)، الصنعاني، تفسير القرآن (٣٨٢/٢)، الطبري، جامع
البيان (٥٠٢-٥٠١/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤٧١/٨). وهذا قول: ابن عباس وعكرمة والحسن
ومجاهد وإبراهيم وعطاء ومقاتل والكلبي، ورجحه ابن جرير الطبري.

وقال ابن زيد (١) : التين مسجد دمشق (٢) ، والزيتون مسجد بيت المقدس (٣) .

وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى (٤) .

وقال قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس (٥) .

وقال عكرمة وكعب (٦) الأخبار (٧) : التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس (٨) .

(١) هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، مولاهم المدني، روى عن أبيه، وابن المنكدر، صنف التفسير، والناسخ والمنسوخ، مات سنة (١٨٢)، انظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غير، (ط، د)، ١٩٨٤م، دائرة المطبوعات والنشر في الكويت (١/٢٨٢)، الذهبي، ميزان الاعتدال (٢/٥٦٤)، الداودي، طبقات المفسرين (١/٢٦٥).

(٢) دمشق عاصمة سوريا وأكبر مدنها. وأكثر المُدُن السورِيَّة سَكَّانًا، وتشغل مساحة قدرها ١٠٥ كم^٢. ويبلغ عدد سكانها ١,٤٨٩,٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٥م، ومع ضواحيها أكثر من ٢,٤ مليون. يوجد فيها الجامع الأموي الذي بناه: عبد الملك بن مروان. الموسوعة العالمية (دمشق).

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان (٢٤/٥٠٣)، البغوي، معالم التنزيل (٨/٤٧١)، ابن عطية، المحرر الوجيز (١٦/٣٣٠).

(٤) انظر: الهاللي، تفسير الضحاك (٢/٩٧٨)، ابن الجوزي، زاد المسير (٨/٢٧٥)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١١٠)، الشوكاني، فتح القدير (٥/٦٥٩).

(٥) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٢/٣٨٢)، الطبري، جامع البيان (٢٤/٥٠٣)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٤٧).

(٦) هو: كعب بن ماته الحميري اليماني العلامة الحبر، كان يهودياً، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم المدينة في أيام عمر رضي الله عنه، فجالس الصحابة، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويأخذ السنن عنهم، وكان حسن الإسلام، مات سنة (٣٢)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٧/٤٤٥)، ابن الجوزي، المنتظم (٧/٣٨)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣/٤٨٩).

(٧) وفي (ب) كعب الأخبار، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٨) انظر: الطبري، جامع البيان (٢٤/٥٠٣)، ابن عطية، المحرر الوجيز (١٦/٣٣٠)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١١١).

والمتعِين الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا تفسير القرآن بغيره هو تفسير التين بالمعنى العربي الواضح الجليّ، وكذلك الزيتون، وهما معروفان في لغة العرب، لا يختلف في معناها.

فالعدول عن هذا^(١) المعنى الظاهر الواضح بغير برهان ليس من دأب المشتغلين بتفسير كلام الله سبحانه^(٢).

وقال محمد بن كعب: التين مسجدُ أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيليا^(٣) (٤).

وقيل: إنه على حذف مضافٍ: أي ومنابت التين والزيتون^(٥).

وأقسم سبحانه في هذه السورة بطور^(٦) سينين، وهو الجبل الذي كلم الله^(٧) عليه موسى^(٨).

(١) في (ب) هذه.

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٥٩/٥)، وهذا الذي رجحه الطبري، في جامع البيان (٥٠٣/٢٤)، قال رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك عندنا: قول من قال: التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت؛ لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تيناً، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالتين والزيتون. والمراد من الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهباً، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ لأن دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون».

(٣) إيلياء مدينة بيت المقدس فيها ثلاث لغات، مد آخره وقصره إيلياء وإيليا، وقصر أولها إيلاء. البكري، معجم ما ما استعجم (٢١٧/١).

(٤) انظر: الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٧/١٠)، البغوي، معالم التنزيل (٤٧١/٨)، ابن عطية، المحرر الوجيز (٣٣٠/١٦).

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١١/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦٦٠/٥).

(٦) جبل بالشام، وهو طور أضيف إلى سيناء وهو شجر. الحموي، معجم البلدان (٤٨/٤).

(٧) في (ب) كلم الله تعالى.

(٨) انظر: الطبري، جامع البيان (٥٠٥/٢٤)، البغوي، معالم التنزيل (٤٧١/٨)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨١٠/٨)، وهو قول: الحسن وكعب الأحرار.

وقال مجاهد والكلبي^(١) : سينين كل جبل فيه شجرٌ مثمر^(٢) .

وقال الأخفش : طور جبل ، وسينين شجرٌ واحدته سينة^(٣) .

إذا تقرر لك أنه سبحانه أقسم في كتابه العزيز بهذه المخلوقات المتنوعة تقرر لك أن المراد بالعصر هو الدهرُ كما قررناه، ولا وجه لتقدير مضافٍ محذوفٍ فيه، ولا في سائر ما أقسم الله سبحانه به من مخلوقاته؛ فإن الله سبحانه يقسم بما شاء منها، ولم يأتنا دليلٌ ولا شبهة دليل أنه لا يقسم إلا بماله شرفٌ وبما فيه فضيلة ممن حرّف المعاني القرآنية الواردة على نمط لغة العرب؛ لأجل تحصيل شيء في المقسم به يصير به ذا شرفٍ، فقد أخطأ خطأً بيناً، وغلط غلطاً واضحاً، فإنه تلاعبٌ بكتاب الله سبحانه لخيال مختل، وتعليل معتل، وتوهم فاسد، وفهم كاسدٍ. فاعرف هذا، وليكن منك على ذكر، فكثيراً ما يقع لأهل العلم الوهم الباطل، ثم يبنى عليه ما هو أبطل منه، وينقله عنه من يهابُ الردُّ عليه [هـ]، فيحررُ في كتب التفسير ونحوها من زائف الأقوال، وباطل الآراء ما يضحك منه تارة، ويبكي منه أخرى.

والتقليد وإحسان الظن بالأموات هو السبب لكل غلطٍ، والمنشأ لكل جهلٍ، والحامل على ترويح كل باطل.

فإن قلت: قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في تفسير العصر المذكور في هذه السورة: أنه ساعةٌ من ساعات النهار^(٤) .

(١) هو: محمد بن السائب بن بشر الكلبي أبو النضر الكوفي، صاحب التفسير وعلم النسب كان إماماً في هذين العَلَمين، وكان شيعياً متروك الحديث، مات سنة (١٤٦)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣٠٩/٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٦)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ١٧).

(٢) انظر: مجاهد، مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، تفسير مجاهد، (ط، د)، (د، ت)، المنشورات العلمية، بيروت (٧٦٩/٢)، الطبري، جامع البيان (٥٠٧/٢٤)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٢/٢٠).

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦٦٠/٥).

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان (٦١٢/٢٤)، السيوطي، الدر المنثور (٦٤٣/١٥).

وأخرج ابن المنذر^(١) عنه أيضاً أنه قال: إنه^(٢) ما قبل مغيب الشمس من العشي^(٣).

قلت: قد أخرج ابن المنذر عنه أيضاً أنه قال: إنه الدهر^(٤)، فمع اختلاف الرواية عنه يُرَجَّحُ ما وافق المعنى اللغوي، ويحمل ما خالفه على المجاز. وقد كانت العرب تتجوّز في لفظ العصر فيقولون مثلاً: العصر الأول، والعصر الآخر، وعصر فلان، ولا^(٥) مشاحة في ذلك.

وقد اختلف القراء في قراءة هذه الكلمة فقرأ الجمهور: والعصر بسكون الصاد^(٦).

وقرأ يحيى بن سلام^(٧) بكسر الصاد^(٨).

وقرأ الجمهور أيضاً خُسر بضم الخاء وسكون السين^(٩)، وقرأ

(١) هو: محمد بن إبراهيم بن المنذر أبو بكر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة، الإمام الحافظ، له اختيار فلا يتقيد بمذهب بعينه، بل يدور مع ظهور الدليل، له تصانيف عدة منها: كتاب "الإجماع"، و"المبسوط"، وتفسير القرآن، وغيرها، مات بمكة سنة (٣١٨)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٠٧/٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٩٠/١٤)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٢٥٠/١).

(٢) في (ب) إن ما قبل.

(٣) انظر: السيوطي، الدر المنثور (٦٤٣/١٥).

(٤) انظر: السيوطي، الدر المنثور (٦٤٣/١٥).

(٥) في (ب) فلا مشاحة.

(٦) الرعيني، محمد بن شريح، الكافي في القراءات السبع، ط ١، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (ص ٢٣٤).

(٧) هو: يحيى بن سلام ابن أبي ثعلبة أبو زكريا البصري نزيل المغرب، أخذ القراءات عن أصحاب الحسن البصري، قال أبو عمرو الداني: سكن إفريقية دهرًا وسمعوا منه تفسيره الذي ليس لأحد من المتقدمين مثله، وكتابه الجامع، مات سنة (٢٠٠)، انظر: الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ط ١، ١٣٧٢هـ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد (١٥٥/٩)، ابن حبان، الثقات (٢٦١/٩)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٩٦/٩).

(٨) ابن خالويه، الحسين بن أحمد، مختصر في شواذ القرآن، (ط، د)، (د، ت)، مكتبة المتنبّي، القاهرة (ص ١٧٩).

(٩) الرعيني، الكافي في القراءات السبع (ص ٢٣٤).

الأعرج^(١)، وطلحة^(٢)، وعيسى بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن
عن عاصم^(٣).

وأخرج الفريابي^(٤)، وأبو عبيد^(٥) في فضائله، وعبد بن حميد^(٦)، وابن
وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف أنه^(٧) كان يقرأ
«والعصر ونواب الدهر إن الإنسان لفي خسر، وإنه فيه إلى آخر الدهر»^(٨).

(١) هو: عبد الرحمن بن هرمز المدني الأعرج أبو داود الإمام المقرئ، أخذ القراءة عرضاً عن أبي هريرة وابن
عباس، وجود القرآن وأقرأه، وكان يكتب المصاحف، مات سنة (١١٧)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى
(٢٨٣/٥)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٦٩/٥)، الذهبي، معرفة القراء (٧٧/١).

(٢) هو: طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب، الإمام الحافظ المقرئ، الموجود أبو محمد الياحي الهمداني الكوفي،
الكوفي، له اختيار في القراءة ينسب إليه، وكانوا يسمونه سيد القراءة، مات سنة (١١٢)، ومات بعدة مثله،
انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (٩٦/٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٩١/٥)، الصفدي، الوافي
بالوفيات (٢٧٧/١٦).

(٣) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن (ص ١٧٩).

(٤) هو: محمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الفريابي، الإمام الحافظ أبو عبدالله الضبي مولا هم، صنف التفسير
اشتهر اسمه بتفسير الفريابي، مات سنة (٢١٢)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (٢٦٠/١٠)، الذهبي، سير
أعلام النبلاء (١١٤/١٠)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٣٠).

(٥) هو: القاسم بن سلام بن عبد الله الإمام الحافظ المجتهد، له كتاب الغريب وفضائل القرآن وغيرها، مات سنة
(٢٢٤)، انظر: الزهري، الطبقات الكبرى (٣٥٥/٧)، ابن الجوزي، المنتظم (٩٥/١١)، الذهبي، سير أعلام
النبلاء (٤٩١/١٠).

(٦) هو: عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الإمام الحافظ الحجّة، كان عالماً في الحديث والتفسير، وماهراً في
العلوم صنف المسند والتفسير، مات سنة (٢٤٩)، انظر: المزي، تهذيب الكمال (٥٢٥/١٨)، الذهبي، سير
أعلام النبلاء (٢٣٥/١٢)، الأدنه وي، طبقات المفسرين (ص ٣٤).

(٧) في (ب) عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ.

(٨) أخرجه الهروي، القاسم بن سلام، في فضائل القرآن، ط ١، ١٤١٥هـ، دار ابن كثير، دمشق (ص ٣١٨)،
والطبري، في جامع البيان، واللفظ له (٦١٣/٢٤)، والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري كما
عند السيوطي، في الدر المنثور (٦٤١/١٥)، والحاكم، في المستدرک على الصحيحين (٥٨٢/٢)، رقم
(٣٩٧١)، وصححه ووافقه الذهبي، جميعهم من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو ذي مرة، قال:
سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فذكره، وإسناده ضعيف؛ لأن فيه عمرو ذي مرة، قال ابن عدي، عبد الله بن
عدي الجرجاني، في الكامل في ضعفاء الرجال، ط ٣، ١٤٠٩هـ، دار الفكر، بيروت (٥ / ١٤٢): «وهو غير
معروف، وهو في جملة مشايخ أبي إسحاق المجهولين الذين لا يحدث عنهم غير أبي إسحاق».

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه «كان يقرأ والعصر إن الإنسان
لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر» (١).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، هذا جواب القسم.

والإنسان يعمُّ كل مراد (٢) من أفراد هذا النوع، لتحليلته باللام المفيدة
لذلك، كما هو مقرر في علم المعاني والبيان، وبهذا يندفع ما قيل إن المراد
بالإنسان هنا الكافر، وما قيل إنهم جماعة من الكفار، وهم الوليد بن
المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد (٣)، وإن كان
هؤلاء وغيرهم من رؤساء الكفر، بل (٤) وسائر الكفار داخلون (٥) في عموم
الإنسان دخولاً أولياً، وكما يدل عموم الإنسان على الإحاطة واستغراق
النوع، كذلك يدل على ذلك الاستثناء منه.

والمراد بالخسر هنا المعنى اللغوي، قال الأخفش: في خسر في
هلكة (٦)، وقال الفراء (٧): في عقوبة (٨)، وقال ابن زيد: في شر (٩).

(١) انظر: السيوطي، الدر المنثور (٦٤٢/١٥).

(٢) في (ب) كل فرد.

(٣) هؤلاء ممن كان يستهزئ برسول الله ﷺ، وقد كفاه الله إياهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، فهلكوا جميعاً في مكة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. انظر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، (ط، د)، (د، ت)، دار الفكر، القاهرة (٤٣٣/٢-٤٣٥)، الطبراني، المعجم الأوسط (١٧٣/٥-١٧٤).

(٤) في (ب) بحذف (بل).

(٥) الصواب: (داخلون) بالرفع؛ لأنه خبر وعلاوة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم. وفي النسختين من الخطوط (داخلين). انظر: المرادي بدر الدين، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٤٧٠/١).

(٦) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٠/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦٩٩/٥).

(٧) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، الديلمي الكوفي مولى بن أسد، وقيل مولى بني منقر، كان
كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، صنف كتاب الحدود ومعاني القرآن، مات وهو في
طريقه للحج سنة (٢٠٧)، انظر: الخطيب، تأريخ بغداد (١٤٩/١٤)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٦/
١٧٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١٨/١٠).

(٨) انظر: الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، (ط، د)، ١٩٧٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٩٨/٣).

(٩) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٠/٢٠)، الشوكاني، فتح القدير (٦٩٩/٥).

والخسر أيضاً [٦]: النقصان وذهاب رأس المال .

قيل: والمعنى أن كل إنسان في المتاجر والمساعي، وصرف^(١) الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت^(٢).

وقال في الصحاح: خَسِرَ في البيع خُسْرًا وخُسْرَانًا، وهو مثل الفرق والفرقان، وخسرت الشيء بالفتح، وأخسرتة نقصته. وقوله تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، واحدهم الأخر مثل الأكبر^(٣)، والتخسير^(٤) الإهلاك، والخناسر الهلاك لا واحد له^(٥).

قال كعب بن زهير^(٦):

إذا ما نتجنا أربعاً^(٧) عام كفاةٍ بغاها خناسيراً فأهلك أربعاً^(٨)
وفي بغاها ضمير من الجدّ وهو الفاعل، يقول: إنه شقي بالجد إذا نتجت
أربع من إبله أربعة أولادٍ هلكت من إبله الكبار أربع غير هذه، فيكون ما هلك
أكثر مما أصاب، والخسار والخسارة، والخيسرى: الضلال والهلاك انتهى^(٩).
انتهى^(٩).

(١) في (ب) وصروف.

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٩٩/٥).

(٣) انظر: الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح تاج اللغة وصرح العربية، ط ٤، ١٤٠٧ هـ، دار العلم للملايين بيروت (خسر).

(٤) في (ب) والتخسر.

(٥) انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، (ط، د)، ١٤١٤ هـ، دار الفكر، بيروت، (خسر).

(٦) هو: كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف، قدم على النبي ﷺ المدينة بعد انصرافه من الطائف، فبايعه على الإسلام، وأنشد قصيدته: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.... مات سنة (٢٦)، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١٣١٣/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٤/٤٧٥)، ابن حجر، الإصابة (٤/٤٧٤).

(٧) في (ب) أربع.

(٨) انظر: البيت عند، السكري، الحسن بن الحسين، في ديوان كعب بن زهير، شرحه ودرسه: مفيد قميحة، ط ١، ١٤١٠ هـ، دار الشواف (ص ٨٦)، ابن منظور، لسان العرب (٥/٦٦).

(٩) انظر: الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط، د)، (د، ت)، دار الهداية (خسر).

وقال في القاموس: «خَسِرَ كَفَرِحَ وَضَرَبَ خُسْرًا وَخَسِرًا وَخُسْرًا وَخُسْرَانًا وَخُسَارَةً وَخُسَارًا، ضَلَّ فَهُوَ خَاسِرٌ وَخَسِيرٌ وَخَيْسِرِي، وَالتَّاجِرُ وَضَعُ فِي تِجَارَتِهِ، أَوْ غُيِبَ، وَالخُسْرُ النِّقْصُ كَالِإِخْسَارِ وَالخُسْرَانُ، وَ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] غير نافعة، والخيسري: الضلال والهلاك، والغدر واللؤم كالخَسَارِ وَالخُسَارَةِ، وَالخَنَاسِرُ وَالخَنَاسِيرُ وَالخُسْرَوَانِي^(١): نوع من الثياب، وَخُسْرَاوِيَّةً^(٢) بلدة بواسط^(٣)، وَخُسْرَهُ تَخْسِيرًا: أَهْلَكَه، وَالخَنَاسِرَةُ: الضعاف الضعاف من الناس، وَأَهْلُ الخِيَانَةِ، وَالخِنْسِيرُ: اللئيم، وَالخَنَسْرُ وَالخَنَسِرِيُّ: من هو في موضع الخسران. وَالخَنَاسِيرُ: أَبْوَالُ الوَعُولِ عَلَى الكَلَأِ وَالشَّجَرِ، وَسَلَمٌ^(٤) بن عَمْرٍو الخَاسِرُ؛ لِأَنَّهُ بَاعَ مِصْحَفًا وَاشْتَرَى بِثَمَنِهِ دِيْوَانَ شَعْرٍ، أَوْ لِأَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ أَمْوَالٌ فَبَذَرَهَا». انتهى^(٥).

أقول: والمناسب للمقام أن يكون الخسرُ الهلاك للإنسان المذكور لعدم استقامته على الدين، وليس المراد: الهلاك الدنيوي بالقتل أو نحوه، بل المراد الهلاكُ الدنيوي الموجب لمصيره إلى النار، كما يفيد ذلك استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وأيضاً المقام مقامُ الترهيب للعصاة، والترغيب لأهل الإيمان والطاعات، ومجموع ذلك يفيد أن يفسر الخُسْرُ: بذهاب الدين الموجب للشقاوة الأبدية،

(١) في (ب) الخسروان.

(٢) في النسختين من المخطوط بدون مد (وَخُسْرَوِيَّةً)، والصواب من المعاجم بالمد «خُسْرَاوِيَّةً»، انظر: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط ٥، ١٤١٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (خَسِرَ)، الحموي، معجم البلدان (٢/٢٧٠).

(٣) الحموي، معجم البلدان (٢/٢٧٠).

(٤) هو: سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء البصري، قدم بغداد، وكان علي طريقة غير مرضية من المجنون، باع مصحفاً كان له واشترى بثمنه دفترًا فيه شعر، فشاع خبره في الناس وسموه سلمًا الخاسر، وقيل: لأنه ملك مالا كثيراً، فاتلفه في معايشة الأدباء والفتيان، كان من فحول الشعراء، مات سنة (١٨٦)، انظر: الخطيب، تاريخ بغداد (٩/١٣٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٨/١٩٣)، الصفدي، الوافي بالوفيات (١٥/١٨٨).

(٥) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط (خَسِرَ).

وهذا أولى من تفسير الخسر بالنقص؛ لأن مقام الترهيب والتشديد [ب] والمبالغة في الوعيد يقتضي الخسران التام، وهو ذهاب الدين بالمرّة، المستلزم لهلاك صاحبه، لا نقصه وذهاب بعضه، وبقاء بعض. ولا يخفى أن هذه الجملة القسمية قد اشتملت على مؤكّدات:

منها القسم، ومنها تسوية جواب القسم بحرف التشبيه، وله مدخلية في تأكيد ما دخل عليه من الكلام، ثم المجيء بالجملة الإسمية، فإنها تدل على الدوام والثبات، ثم تحلية الإنسان باللام الاستغراقية المفيدة للعموم، ثم اللام في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، ثم المجيء بفي الدالة على أن الخسر^(١) قد صار ظرفاً له فكأنه منغمس فيه، وهو مشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف، فقد اشتمل هذا الكلام على جميع المؤكّدات التي ذكرها أهل البيان، وكل ذلك يفيد أن لزوم هذا الخسر^(٢) للإنسان ثابت لا محالة، وأنه لا ينفك عنه بحال من الأحوال، ولا يفارقه بوجه من الوجوه إلا إذا تخلّص عنه مما تضمّنه الاستثناء، فإنه يخرج به من الظلمة إلى النور، ومن الضيق إلى السّعة، ومن الهلاك إلى السلامة^(٣)، ومن العذاب إلى النعيم، ومن النار إلى الجنة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣]، الموصول من صيغ العموم؛ كما تقرر في علم البيان والأصول، فيشتمل كل من حصل له وصف الإيمان.

وقد اختلف الناس في تفسير الإيمان إختلافاً كثيراً وأطالوا في ذلك، وتنوعت كلماتهم، واختلفت رسومهم.

والذي ينبغي الاعتماد عليه، والمصير إليه هو ما ثبت عن الصادق

(١) في (ب) الخسران.

(٢) في (ب) الخسران.

(٣) في (ب) السلام.

المصدوق صلى الله عليه وسلم^(١) في تفسيره، وبيان معناه كما في الصحيحين وغيرهما، فإنه لما سأله السائل عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره)^(٢).

وعند هذا البيان النبوي، والتفسير المصطفوي يُستغنى عن تلك الحدود التي حدّوه بها، والرسوم التي اصطَلحوا عليها، وإذا جاء نهر الله بطل نهرٌ مَعْقِلٌ^(٣).

والمراد هنا هو الإيمان الشرعي؛ لأن الحقائق الشرعية مقدّمة على غيرها كما تقرّر في علم الأصول، وهو في الشرع: التصديق عن كمال اعتقاد، بحيث لا يشوبه شكٌّ، ولا حتى^(٤) شبهةٌ. ولو لم يكن على هذه الصفة لم يكن تصديقاً صحيحاً.

والمراد من التصديق بالله سبحانه أن تصدّق بوجوده، وأنه الإله الخالق الرازق، المحيي^(٥) المميت، الحي الدائم، الأحد الصمد، الذي لم يشاركه مشاركٌ، بل هو المنفرد بالربوبية، والكل من هذا العالم عباده، وتحت حكمه، يصنع فيهم [أ٧] ما يشاء، ويحكم ما يريد، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

ويصدّق بوجود ملائكته على الصفة التي وردت في الكتاب والسنة،

(١) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٢) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (٣٣/١)، رقم (٥٠)، من حديث أبي هريرة ؓ، ومسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. (٣٩-٣٦/١)، رقم (٨)، (٩)، واللفظ له، من حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما، وأبو داود، سنن أبي داود، في السنة، باب في القدر (٢٢٣/٤-٢٢٤)، رقم (٤٦٩٥)، من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

(٣) الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، (ط، د)، (د، ت)، دار المعرفة، بيروت (٨٧/١).

(٤) في (ب) ولا تعتريه شبهة.

(٥) في (ب) بحذف المحيي.

ويصدق بأن الله^(١) أنزل كتبه على رسله ليبينوا لهم ما شرعه لهم من الشرائع، وأن هذه الكتب التي جاء بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، هي من عند الله عز وجل، وأنها كلها حق وصدق وشرعٌ، وإن خالف بعضها بعضاً، فإن ذلك إنما هو لرعاية مصالح العباد بحسب اختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص.

ويصدق أيضاً بأن الرسل الذين أرسلهم الله^(٢) إلى عباده هم رسله حقاً، وأنه أمرهم بإرشاد العباد إلى ما شرعه لهم من الشرائع، وبينه لهم من المصالح الدينية والدنيوية لطفاً بهم، وتوفيقاً لهم، وإقامةً للحجة عليهم، لئلا يقولوا ما جاءنا من رسول، والله الحجة البالغة.

ويصدق بالقدر خيره وشره، أي بأن ما كان أو سيكون من كبير وصغير، وجليل وحقير، وخير وشر، ونفع وضر هو بتقدير الله سبحانه وقضائه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ليس للعبد في ذلك عمل، ولا له تصرف في نفسه، ولا في غيره، ولا في جليل أموره، ولا في حقيرها، ولا في صغيرها، ولا في كبيرها، بل قدر الله وما شاء فعل.

واعلم أن الإيمان بالقدر هو العقبة الكؤود، والمرقأ^(٣) الصعب، فإنه إذا صح للعبد الإيمان به كما ينبغي لم يأسف على^(٤) فائتٍ كائناً ما كان؛ لأنه يعلم أن ذلك هو من جهة خالقه ورازقه، ومن هو أرأف به من أبويه، وأحنأ عليه من نفسه.

ولكن هذه النفوس البشرية مجبولة على السرور بالخير، والنفور عن

(١) في (ب) بأن الله تعالى.

(٢) في (ب) أرسلهم الله تعالى.

(٣) في (ب) والمرقأ.

(٤) في (ب) على ما فات.

الشر، فإذا دهمها شيء مما تكره اضطربت له، ونفرت عنه، وضاق ذرعها به، وطال همها، وكثر غمها، وذلك جلبة خَلقية، وطبيعة بشرية، فيكون بذلك تكدر العيش، وضيق العطن، وتشوش الحال، ولكنه إذا راجع نفسه وتعلّق ما أمر به من الإيمان بالقدر، وأن ذلك من عند الله عزوجل هان الخطب، وقل الكرب، وذهب الغم، وارتفع الهم.

وما أحسن ما قاله إبراهيم الحربي^(١) رحمه الله^(٢): «من لم يمش مع القدر لم يتهن بعيشه»^(٣).

وها هنا باب يدخل منه من كربه أمر، ومسه خَطْب يلج منه إلى حصن حصين ينجو به من كل شيء يخافه^(٤) ويحذره، وهو الدعاء، فإنه التَّرياق^(٥) النافع، والمرهم الشافي.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه يرد القضاء^(٦)، وأنهما يعتلجان^(٧)[ب٧].
يعتلجان^(٧)[ب٧].

(١) هو: إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحربي أبو إسحاق، كان إماماً في العلم والزهد، حافظاً للحديث، قيماً بالأدب، جماعاً للغة، صنف غريب الحديث وكتباً كثيرة، مات سنة (٢٨٥)، انظر: الخطيب، تاريخ بغداد (٢٦/٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٥٦/١٣)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٢١١/٥).

(٢) في (ب) رحمه الله تعالى.

(٣) انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (٤٠٥/٢).

(٤) في (ب) يخالفه.

(٥) التَّرياقُ بكسر التاء دواء السموم، فارسي معرب. انظر: الرازي، مختار الصحاح (ترق).

(٦) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، في القدر، باب ماجاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٣٩٠/٤)، رقم (٢١٣٩)، وقال: «حسن غريب»، والطحاوي، في شرح مشكل الآثار (٧٨/٨)، رقم (٣٠٦٨)، والطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط ٢، ١٤٠٤هـ، مكتبة الزهراء، الموصل (٢٥١/٦)، رقم (٦١٢٨)، جميعهم من حديث سلمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر)، وحسنه الألباني، في صحيح سنن الترمذي (٤٤٣/٢)، رقم (٢١٣٩).

(٧) أخرجه الطبراني، في الأوسط (٦٦/٣)، رقم (٢٤٩٨)، والحاكم، في المستدرک (٦٦٩/١)، رقم (١٨١٣)، (١٨١٣)، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة)، قال الحاكم:

وثبت في الأحاديث الصحيحة الاستعاذة من شر القضاء كما في صحيح مسلم^(١) وغيره^(٢).

وثبت في حديث الحسن بن علي^(٣) رضي الله^(٤) عنه في القنوت الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وقني شرَّ ما قضيت)^(٦).

واعلم أنه قد اشتغل كثير من الناس بالسؤال عن سر القدر، واستشكال

حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بأن في سنده زكريا مجمع على ضعفه. وقال الهيثمي، في المجمع (١٠/١٤٦): «رواه الطبراني، في الأوسط والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات»، وقال ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر، في التلخيص الحبير، (ط، د)، ١٣٨٤هـ، المدينة المنورة (٤/١٢١): «في إسناده زكريا بن منظور وهو متروك». فالحديث إسناده ضعيف.

(١) هو: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين، صاحب الصحيح، رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر، وكان إماماً حافظاً مجوداً، مات سنة (٢٦١)، انظر: الخطيب، تأريخ بغداد (١٣/١٠٠)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٥/١٩٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/٥٥٧).

(٢) أخرج البخاري، في الجامع الصحيح، في الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء (٤/١٦٢)، رقم (٦٣٤٧)، ومسلم، صحيح مسلم، في الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء (٤/٢٠٨٠)، رقم (٢٧٠٧)، واللفظ له، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: (كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء).

(٣) هو: الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي حفيد رسول الله ﷺ، ولد سنة ثلاث من الهجرة، كان أشبه الناس برسول الله ﷺ، مات بالمدينة، واختلف في وقت وفاته قيل: سنة (٤٩)، وقيل: (٥٠)، وقيل: (٥١)، ودفن بالبقيع، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/٣٨٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٢/١٠)، ابن حجر، الإصابة (١/٤٩٢).

(٤) في (ب) رضي الله تعالى عنهما.

(٥) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله.

(٦) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، في الصلاة، باب القنوت في الوتر (٢/٣٦)، رقم (١٤٢٥)، والترمذي، سنن الترمذي، في أبواب الوتر، باب ماجاء في القنوت في الوتر (٣/٣٢٨)، رقم (٤٦٤)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي، سنن النسائي، في قيام الليل وتطوع النهار، باب الدعاء في الوتر (٣/٢٧٥)، رقم (١٧٤٤)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، في إقامة الصلاة، باب ماجاء في القنوت في الوتر (١/٣٧٢) رقم (١١٧٨)، وصححه ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ط ٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (٣/٢٢٥)، رقم (٩٤٥)، والألباني، في صحيح سنن أبي داود (١/٣٩٢)، رقم (١٤٢٥).

مباحث من مباحثه، ولوازم من لوازمه، وهؤلاء مع كونهم قد خالفوا ما وردت به السنة المطهرة من النهي عن البحث عن سرّ القدر، والاشتغال بما تُخَيِّله الأذهان، وتزيينه الأوهام لم يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله سبحانه بأن يبين للناس ما نزل إليهم، فإنه صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذلك طوى بساط التفصيل والتطويل، والإطناب والتعليل، واكتفى بقوله: (اعملوا؛ فكل امرئ ميسر لما خُلق له)^(٣).

واعلم أن هذا الاستثناء الواقع في الآية متصلٌ عند كل من حمل المستثنى منه على العموم، وهو الحق^(٤).

وأما من قال إن المراد به جنس الكفار، أو كفارٌ معينون^(٥) فهو يجعله منقطعاً، والتقدير: ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فإن قلت: ظاهر ما في هذه الآية من العموم شمولها لأهل الفترة الذين لم يبلغهم شيء من شرائع الله سبحانه؛ لأنهم ماتوا ولم يؤمنوا ولا عملوا الصالحات.

قلت: هؤلاء وإن دخلوا في عموم الإنسان فقد خرجوا بالعفو عنهم لجهلهم بالشرائع، وعدم تمكنهم من طلبها^(٦)، ولهذا يقول الله سبحانه:

(١) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله.

(٢) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله.

(٣) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في التفسير، باب: ﴿فَسَيِّسْرُهُ لِّلْعُسْرَى﴾ (٣/٣٢٦)، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم، صحيح مسلم، في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٤/٢٠٣٩)، رقم (٢٦٤٧)، كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنحوه.

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٥/٦٩٩).

(٥) وفي (ب) معينين، والصواب ما أثبتناه. انظر: المرادي بدر الدين، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (١/٨٧٣).

(٦) مذهب أهل السنة في أصحاب الفترة، أنهم يمتحنون بنارٍ في عرصات القيامة، ودليلهم في ذلك ما أخرجه الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ط ٢، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة (٢٦/٢٢٨) رقم

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فإن قلت: الأنبياء صلوات الله^(١) عليهم وسلامه منزّهون عن أن ينالهم خسرٌ لما ثبت لهم من العصمة قبل النبوة وبعده.

قلت: هم أعلى طبقات العالم، وأكرم جنس بني آدم، وقدوة أهل الإيمان، وأُسوة الصالحين، فكما أن أهل الإيمان خارجون من الخسر بإيمانهم فأنبياء الله^(٢) خارجون عنه^(٣) باصطفاء الله لهم، مع كون إيمانهم أكمل إيمان، وإيقانهم أشرف إيقان.

وإنما يردُّ هذا السؤال لو كان المستثنى داخلاً فيما أسند إلى المستثنى منه، مشاركاً له فيما نسب إليه، وليس الأمر كذلك، فإنه إنما شاركه في كونه من أفرادهِ، ومن جملة ما يصدق عليه باعتبار العموم لا باعتبار ما نسب إليه، ولهذا قدر الاستثناء أئمة النحو والأصول والبيان بأن معنى جاءني القوم إلا زيداً: القوم المخرجُ منهم زيدٌ جاءني.

(١٦٣٠١)، والطبراني، في المعجم الكبير (٢٨٧/١) رقم (٨٤١)، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، القضاء والقدر، ط ١، ١٤٢١هـ، مكتبة العبيكان، الرياض (ص ٣٦٢) رقم (٦٤٤)، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، الاعتقاد، ط ١، ١٤٠١هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت (ص ١٦٩)، وصححه ابن حبان، في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣٥٦/١٦) رقم (٧٣٥٧)، والألباني، في السلسلة الصحيحة (٤٨١/٣) رقم (١٤٣٤)، جميعهم من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في الفترة، فأما الأصم فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذقوني بالبر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول فأخذ موثيقهم ليطيعه، فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار)، قال: (فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً). وانظر: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي، طريق الهجرتين، ط ٢، ١٤١٤هـ، دار ابن القيم، الدمام (ص ٥٨٧).

(١) في (ب) صلوات الله تعالى عليهم.

(٢) في (ب) فأنبياء الله تعالى.

(٣) في (ب) بحذف (عنه).

وهكذا سائر التراكيب الاستثنائية، فالتقدير فيما نحن بصدده: الإنسان المخرَج منه [أ] الذين آمنوا وعملوا الصالحات في خسر.

فإن قلت: قد ذكرنا أن الله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، فهل ثمَّ (١) نكتة في تخصيص الإقسام بالعصر في هذه السورة؟.

قلت: يمكن أن تكون النكتة أن العصر الذي هو الدهر لما كان كثير من الغافلين ينسبون ما ينالهم من السعادة والشقاوة إليه، أقسم الله (٢) به بلزوم الخسر لهم، وإنهم (٣) في خسر لا يتخلصون عنه إلا بما تضمنه الاستثناء، ومع ذلك فقد ثبت في الصحيح: (لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر) (٤)، وفي هذا مخصَّصٌ للإقسام به ظاهر في فاتحة هذه السورة المشتملة على التهديد ومزيد الوعيد.

فإن قلت: هل من نكتة في ذكر الإنسان في هذه الآية، مع إمكان أن يُؤتى مكانه بالناس أو ما يفيد مفادَه؟.

قلت: يمكن أن يقال: إن هذا اللفظ؛ أعني: الإنسان، خاص لهذا (٥) النوع لا يتناول غيره، ولا يشاركه فيه سواه، بخلاف لفظ الناس، فإنه كما في كتب اللغة يطلق على الجنِّ كما يطلق على الإنس، وعلى ناس الإبل وهو ساقها.

فإن قلت: هل من نكتة في ذكر الخسر دون الهلاك، أو الشقاء، أو العذاب، أو ما يؤدي هذا المعنى؟

(١) في (ب) ثمة.

(٢) في (ب) أقسم الله تعالى.

(٣) في (ب) فإنهم.

(٤) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الأدب، باب: لا تسبوا الدهر (٤/١٢٥)، رقم (٦١٨٢)، ومسلم، صحيح مسلم، في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/١٧٦٣)، رقم (٢٢٤٦) واللفظ له، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في (ب) خاص هذا النوع.

قلت: يمكن أن يقال: أن النكتة في ذكره دلالة على تلك المعاني المتنوعة من الهلاك والنقص، وسائر ما ذكرناه هنالك، فإن ذلك قد يكون أنسب بأحوال الأشخاص المختلفين في إهمال الشريعة بأسرها وهم الكفار، وفي النقص منها وهم العصاة من هذه الأمة، وهذا لا ينافي ما رجحناه فيما تقدم من حمّله على الهلاك.

فإن قلت: ما وجه المجيء بالموصول في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ٣] وهلاً اكتفى بما هو أخصر فقال: إلا المؤمنين؟.

قلت: المجيء بالموصول له فوائد ذكرها أهل المعاني، ولو لم يكن منها إلا الدلالة على التعظيم لشأنه، وما أحق المؤمنين بذاك^(١)!.

وقد دل العطف بقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، على أنه لا بد من الجمع بين الإيمان وبين العمل، وأنه لا يكفي مجرد الإيمان.

والمراد بالصالحات الأعمال الصالحة، وأهمها وأقدمها ما يجب على الإنسان القيام به، ومن ذلك أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ثم ترك ما حرّمه الله^(٢) عليه، فإن الكفّ عن ذلك عمل صالح يُمدحُ التارك له على تركه، ويُذمُّ الفاعل له على فعله، ثم يفعل من أعمال الخير ما بلغت إليه قدرته على حسب الحال، ومن زاد زاد الله في حسناته.

والحاصل أن الإتيان بالواجبات واجتناب المحرّمات متحتمٌ على كل مكلف، فهو لا يخرج من الخسر المذكور في الآية إلا^(٣) بمجموع الإيمان، والقيام بذلك على التمام [ب٨].

(١) في (ب) بذلك.

(٢) في (ب) حرّمه الله تعالى عليه.

(٣) في (ب) بحذف (إلا).

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن الإسلام: (أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)^(١).

وثبت في الكتاب والسنة الأمر بكل واحد من هذه الأركان على الخصوص، وثبت في الكتاب والسنة الأمر بواجبات، والنهي عن محرمات، فلا ينجو من الخسر المذكور في الآية إلا من قام بذلك على الحد الذي أمره الله^(٢) به^(٣)، ونهاه عنه.

فهذه هي الصالحات التي أمر الله سبحانه بعملها، وجعل مجموع الإيمان، والعمل بهذه الأمور هو الذي يخرج به الإنسان عن الخسر الذي هو ختم^(٤) في رقاب العباد بالقسم الرباني والحكم الإلهي.

فإن قلت: إن كان هذا التعريف في الصالحات للاستغراق، والمراد أن كل فرد عمل كل الصالحات، فهذا مما لا يدخل تحت قدرة البشر، فإن الصالحات لا يمكن الإحاطة بها فضلاً عن أن يمكن فعل كل واحدة منها.

قلت: هذا التعريف يمكن أن يراد به العهد، فتكون الصالحات هي المعهود التي يتحتم القيام بها كما قدمنا، وقد قال المحقق الرضوي^(٥) في شرح الكافية: إن التعريف العهدي هو الأصل في أقسام التعريف المذكورة في علم النحو والمعاني، والحكم بأصالته يقتضي تقديم الحمل عليه.

(١) تقدم تخريجه (ص ١١١).

(٢) في (ب) أمره الله تعالى.

(٣) في (ب) بحذف (به).

(٤) في (ب) حتم.

(٥) هو: محمد بن الحسن الرضوي الاسترأبادي، عالم بالعربية، من أهل أسترأباد - من أعمال طبرستان - اشتهر بكتابه، الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب في علم النحو، وشرح مقدمة ابن الحاجب، وهي المسماة بالشافية، في علم الصرف، مات سنة (٦٨٦)، انظر: السيوطي، بغية الوعاة (١/٥٦٧)، البغدادي، خزنة الأدب (١/٤٨)، الزركلي، الأعلام (٦ / ٨٦).

ويمكن أن يكون للجنس، وذلك لا يستلزم الإحاطة بكل أفراد الصالحات، بل يدخل فيها ما يتحتم القيام به دخولاً أولياً، ثم يكون ما عدا ذلك على حكمه الذي يتصف به من كونه مسنوناً أو مندوباً أو نحو ذلك، فيفعل العبد منها ما يشاء أن يؤجر عليه، ويكثر به ثوابه وتتعاظم به حسناته.

واعلم أن هذا النظم القرآني قد دل أكمل دلالةً على أن الإيمان الذي هو التصديق لا بد أن ينضم إليه العمل كما هو المذهب الحق، وفيه أوضح رد، وأكمل دفع لقول من يقول: أنه لا يلزم ضمُّ العمل إلى الإيمان كما يذهب إليه بعض المرجئة^(١).

واعلم أنها تتفاوت أقدام المؤمنين في التصديق، فقد يكون إيمان الرجل ثابتاً كالجبال الرواسي بحيث لا يتزلزل لشبهة، ولا يتقهقر لشك ولا تشكيك، وقد يكون دون ذلك.

ولهذا قال الجمهور: إن الإيمان يزيد وينقص، وهو الحق، وذلك مما يعلمه كل عاقل، ولا سيما الإيمان بالقدر؛ فإن بعض أفراد العباد قد يمنحه الله سبحانه [٩] من الإيمان بقدره^(٢) ما ينثلج به قلبه، وتقر به عينه، ويطمئن إليه خاطره، فيخرج^(٣) عن مضيق الهموم والغموم والحسرات والكربات إلى

(١) ذهب أهل السنة إلى اشتراط العمل في مسمى الإيمان، وهو المذهب الحق؛ لدلالة الآيات والأحاديث وأقوال السلف، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، قال البغوي، الحسين بن مسعود، في شرح السنة، ط ٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، دمشق (١ / ٣٨-٣٩): «اتفقت الصحابة والتابعون، فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، فجعل الأعمال كلها إيماناً، وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية على ما نطق به القرآن» أ. هـ بتصرف، ولمزيد البحث، انظر: اللا لكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور، شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، ط ١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض (١/١٥١-١٨٦)، وابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، الإيمان، ط ٣، ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت (ص ١٩٢).

(٢) في (ب) بحذف الهاء.

(٣) في (ب) ليخرج.

متسع التسليم والرضا بما يجري به القضاء.

اللهم ارزقنا الإيمان بقدرك على الوجه الذي تريده منا مع حلول الطافك الخفية علينا، ووصول توفيقاتك المباركة إلينا، يا من بيده الخير كله، دقه وجله. وكما تختلف أحوال الإيمان باختلاف الأحوال والأشخاص كذلك يختلف عمل الصالحات باختلاف الأحوال والأشخاص، فالعمل مع الخلوص والتنزه عن شوائب الرياء، والبعد من آفات الغفلة يتضاعف ويكثر ثوابه، ويعظم أجره بخلاف ما لم يكن على هذه الصفة.

والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منادية بذلك بأعلى صوت، ففي بعضها التصريح بأن فاعل ذلك العمل يوفى أجره بغير حساب^(١)، وفي بعضها إلى سبع مائة ضعف^(٢)، وفي بعضها إلى أكثر من ذلك^(٣)، وفي بعضها أن الحسنه بعشرة أمثالها^(٤)، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قلت: قوله: ﴿وَعَمَلُوا﴾^(٥) يدل على أنه تكفي عمل الصالحات مرة

-
- (١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الرُّم: ١٠].
- (٢) قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].
- وأخرج البخاري، الجامع الصحيح، في الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسبئة (١٨٩/٤)، رقم (٦٤٩١)، ومسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة.. (١١٨/١)، رقم (١٣١) كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: (من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة...).
- (٣) أخرج البخاري، الجامع الصحيح، في اللباس، باب ما يذكر في المسك (٧٨/٤)، رقم (٥٩٢٧) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، في الصيام، باب فضل الصيام (٨٠٧/٢)، رقم (١١٥١)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به).
- (٤) قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].
- وأخرج البخاري، الجامع الصحيح، في الإيمان، باب حسن إسلام المرء (٣٠/١)، رقم (٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (. . . الحسنه بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف).
- (٥) في (ب)، (عملوا الصالحات).

واحدة؛ لأن الفعل من باب المطلق، فيصدق معناه بالمرة الواحدة، وليس في الصيغة ما يدل على التكرار، وأكثر الأعمال الصالحة التي تحتم على الإنسان واجبة على جهة التكرار، بحيث إنه إذا أخل بشيء منها لم يخرج من الخسران.

قلت: الأمر كما ذكرت، ولكن الأدلة من الكتاب والسنة قد دلت على وجوب تكرار ما هو متكرر^(١)، والإجماع قائم على ذلك.

وهكذا قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه إنما يدل على مجرد وقوع الإيمان، وهو التصديق، وليس فيه ما يدل على وجوب الثبوت عليه، والاستمرار على معناه.

ولكن الأدلة الصحيحة قد دلت على ذلك دلالة واضحة ظاهرة، فلا يكون مؤمناً إلا إذا دام على التصديق بتلك الأمور حتى يتوفاه الله عز وجل^(٢).

(١) من الأدلة على ذلك، أولاً: من الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّجُومِ وَرُكُوعَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ثانياً: من السنة: أخرج البخاري، الجامع الصحيح، في كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (١/١٨٤)، رقم (٥٢٨)، ومسلم، صحيح مسلم، في كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة (١/٤٦٢)، رقم (٦٦٧) واللفظ له، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟) قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: (فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا).

وأخرج مسلم، صحيح مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضلة العمل الدائم (١/٥٤١)، رقم (٧٨٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل). وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت العمل لزمته.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزُّحُرْف: ٧٢]. قال ابن عاشور، في التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٦): «دل قوله: (كنتم تعملون)، على أن عملهم الذي استحقوا به الجنة أمر كائن متقرر، وأن عملهم ذلك متكرر متجدد، أي غير منقطع إلى وفاتهم».

فإن قلت: هل بين هذا التركيب المذكور في هذه الآية وبين قوله سبحانه في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٥-٦]، تقارب^(١) ولو من بعض الوجوه؟.

قلت: نعم، ولكن على أحد التفسيرين^(٢)، وهو أن المراد بقوله: ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أنه رد الإنسان إلى أسفل دركات النار^(٣). ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [٩ب]، فإنهم ناجون من ذلك، فائزون بأجر غير ممنون.

ولا ينافي كون جنس العصاة من الكفار وغيرهم أسفل سافلين ما ورد في المنافقين بأنهم في الدرك الأسفل من النار^(٤)، فلا مانع من كون الكفار والمنافقين والعصاة مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل، ويكون قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إما حالاً من المفعول، أي رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف أي مكاناً أسفل سافلين^(٥)، ويكون في سورة التين زيادة ليست في سورة العصر، وهي أن لهم أجراً غير ممنون، وفي سورة العصر زيادة^(٦) ليست في سورة التين، وهي التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد روي مثل هذا التفسير عن مجاهد، وأبي العالية، والحسن، بل روى ما يفيد ذلك الخطيب^(٧)،

(١) في (ب) تفاوت.

(٢) سيذكر المصنف كلا التفسيرين لاحقاً.

(٣) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٨٢/٢)، الطبري، جامع البيان (٥١٥/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٨/١٠)، وهذا القول الأول في تفسير الآية، وهو قول: مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد.

(٤) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

(٥) الحلبي، أحمد بن يوسف المعروف بالسمن الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ط ١، ١٤١٥هـ، دار القلم دمشق (٥٢/١١).

(٦) في (ب) مادة.

(٧) هو: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد البغدادي المعروف بالخطيب، صاحب تاريخ بغداد، وغيره من المصنفات، كان من الحفاظ المتقنين، والعلماء المتبحرين، وصنف قريباً من مائة مصنف، مات

وابن عساكر^(١)، عن الزهري^(٢)، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ عبدة^(٣) الأوثان من اللات والعزى، والمراد بقوله: ﴿لَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أبو بكر^(٤)، وعمر^(٥)، وعثمان، وعلي^{(٦)(٧)}.

ولكن في إسناد هذا الحديث مجهول، فلا تقوم به حجة.

-
- سنة (٤٦٣)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٩٢/١)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٧٠/١٨)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (٢٤٠/١).
- (١) هو: علي بن الحسن بن هبة الله، الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر، فخر الشافعية، وإمام أهل الحديث في زمانه، صاحب تاريخ دمشق، وغيره من المصنفات المفيدة المشهورة، مات سنة (٥٧١)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥٥٤/٢٠)، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (٢١٥/٧)، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (١٣/٢).
- (٢) هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب، أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام، الإمام العلم، رأى عشرة من الصحابة، وروى عنه جماعة من الأئمة منهم مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وغيرهم، مات سنة (١٢٤)، انظر: الفسوي، يعقوب بن سفيان، المعرفة والتاريخ، ط ١، ١٤١٠هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة (٤٢٤/١)، الرازي، الجرح والتعديل (٧١/٨)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (١٧٧/٤).
- (٣) في (ب) عبد الأوثان.
- (٤) هو: عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي، أبو بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ، ولد بعد حادث الفيل بستين، أول من آمن من الرجال، رافق النبي ﷺ، في هجرته إلى المدينة، مات سنة (١٣)، ودفن بجوار النبي ﷺ، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٩٦٣/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٣٠٩/٣)، ابن حجر، الإصابة (٢٤٦/٣).
- (٥) هو: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم بعد رجال سبقوه، وولي الخلافة بعد أبي بكر، قتل سنة (٢٣)، ودفن بجوار النبي ﷺ، وأبو بكر، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١١٥٦/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (١٤٥/٤)، ابن حجر، الإصابة (٣/٤).
- (٦) هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي يكنى أبا الحسن، زوجه رسول الله ﷺ، ابنته فاطمة، بويع له بالخلافة بعد عثمان، قتل سنة (٤٠)، واختلف في محل دفنه، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١٠٨٩/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٩١/٤)، ابن حجر، الإصابة (٤٩٣/٣).
- (٧) أخرجه الخطيب، في تاريخ بغداد (٩٧/ ٢)، رقم (٤٩٣)، وابن عساكر، في تاريخ مدينة دمشق (٢١٤ / ١)، قال ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، في كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات، ط ١، ١٤١٨هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض (٤٠٧/١)، رقم (٤٨٧): «حديث موضوع، بارد الوضع، بعيد عن الصواب، فالحمل فيه على ابن بيان الثقفي»، وقال السيوطي، في الدر المنثور (٥٠٧/١٥): «فيه راوٍ مجهول».

وأما على تفسير الجمهور فلا، وهو الظاهر الذي يدل عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. أي: في أحسن شكل وتعديل^(١) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العُمُر، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة^(٢). ولا بد على هذا التفسير من حمل الاستثناء على الانقطاع، أي لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون. ووجه ذلك أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر، فلا يكون الاستثناء متصلاً، ففي التفسير الأول مرجح، وهو حمل الاستثناء على الاتصال الذي هو أصله، وللتفسير الثاني الذي هو تفسير الجمهور مرجح وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. فإن قلت: هل يمكن حمل الاستثناء على الاتصال على ما يطابق تفسير الجمهور؟.

قلت: يمكن أن يقال أن الرد إلى أسفل سافلين هو الرد إلى حال ذهاب العقل وسقوط القوى، وذهاب الحواس على وجه شديد بالغ إلى الغاية، والغالب صيانة صالحى العباد عن مثل ذلك، واللفظ بهم عن البلوغ إلى هذه الغاية، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً^(٣)، ويكون [١٠] باعتبار الغالب، وذلك مشاهدٌ محسوس عناية من الله عز وجل بأهل الصلاح التام، والهدى القويم.

وقد ورد ما^(٤) يدل على أن المراد في هذه الآية هو التفسير الذي ذهب

(١) انظر: مجاهد، تفسير مجاهد (٧٦٩/٢)، الطبري، جامع البيان (٥١١/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٨/١٠)، وقال به: ابن عباس وإبراهيم وأبو العالية ومجاهد وقتادة والكلبي.

(٢) انظر: الصنعاني، تفسير القرآن (٣٨٢/٢)، الطبري، جامع البيان (٥١٣/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٨/١٠)، وهذا القول الثاني في تفسير الآية، هو قول: ابن عباس وعكرمة وإبراهيم وقتادة والكلبي

ورجحه ابن جرير.

(٣) وهذا ما رجحه الطبري، في جامع البيان (٥٢١/٢٤).

(٤) في (ب) ورد على ما.

إليه الجمهور، فأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يقول: يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ، كَبْرٌ (١) حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُهُ، هُمْ نَفَرٌ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَفِهَتْ عُقُولَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (٢) عَذْرَهُمْ أَنْ لَهُمْ أَجْرُهُمُ الَّذِي عَمَلُوا قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ عُقُولُهُمْ (٣).

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال: فِي أَعْدَلِ خَلْقٍ، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يقول: إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: غير منقوص. يقول: فإذا بلغ المؤمن أَرْدَلَ الْعَمْرِ، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كُتِبَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صِحَّتِهِ وَشَبَابِهِ، ولم يضره ما عمل في كِبَرِهِ، ولم تكتب عليه الخطايا التي تعمل بعدما يبلغ أَرْدَلَ الْعَمْرِ (٤).
وأخرج أحمد، والبخاري (٥)، وغيرهما عن أبي موسى (١) قال: قال

(١) في (ب) بحذف (كبر).

(٢) في (ب) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى.

(٣) أخرجه الطبري، في جامع البيان (٥١٣/٢٤)، والرازي، في تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٧/١٠)، رقم (١٩٤٠٢)، وابن مردويه، في التفسير كما عند السيوطي، في الدر المنثور (٥٠٨/١٥).

(٤) أخرجه مجاهد، في تفسير مجاهد (٧٧٠/٢)، رقم (٩٥)، والطبري، في جامع البيان (٥٠٧/٢٤)، والرازي، في تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٨/١٠)، رقم (١٩٤٠٩)، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، في الزهد الكبير، ط ٣، ١٩٩٦م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت (ص ٢٤٢)، رقم (٦٣٨)، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه في تفاسيرهم كما عند السيوطي، في الدر المنثور (٥١٢/١٥)، وقال الحافظ، أحمد بن علي بن حجر، في فتح الباري شرح صحيح البخاري، (ط، د)، ١٣٧٩هـ، دار المعرفة، بيروت (٧١٣/٨): «إسناده حسن».

(٥) هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله الجعفي البخاري، الإمام في علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل في طلب الحديث إلى أكثر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان ومدن العراق والحجاز والشام ومصر، مات سنة (٢٥٦)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم (١١٣/١٢)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (١٩٠/٤)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٩١/١٢).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحاً مقيماً) (٢).

ويدل على التفسير الذي ذكرناه وجعلناه ثالثاً للتفسيرين ما أخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: «من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً» (٣).

فإن قلت: قد تكلمت على مفردات هذه الآية - أعني قوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرُ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، ولم تتكلم على مجموعها من حيث محلها، والغرض الذي سيقت له؟.

قلت: هي مبتدأة (٤) قسمية إنشائية لا محل لها من الإعراب.

وأما الغرض الذي سيقت له فهو ترهيبُ عباد الله سبحانه عن معاصيه، وإهمال ما أوجبه على عباده من الإيمان والعمل، وترغيبهم (٥) في الإيمان وعمل الصالحات، وأن ذلك هو الذي يكون به خروجهم من ظلمات الخسر إلى أنوار الإيمان والطاعة، فمن ألقى السمع وهو شهيد [١٠ب] إلى هذا الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد جذبَه ذلك إلى خير البداية والنهاية، ونعيم

(١) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار أبو موسى الأشعري، قدم على النبي ﷺ في فتح خيبر، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن مات بالكوفة، وقيل: بمكة سنة (٤٤)، وقيل: (٥٠). وقيل: (٥٢)، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٩٧٩/٣)، ابن الأثير، أسد الغابة (٣٦٧/٣)، ابن حجر، الإصابة (٢٧٣/٣).

(٢) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٣٥٧/٢)، رقم (٢٩٩٦)، والشيباني، في المسند (٤٥٧/٣٢)، رقم (١٩٦٧٩)، والبيهقي، في السنن الكبرى (٣٧٤/٣)، رقم (٦٣٣٩).

(٣) أخرجه الحاكم، في المستدرک على الصحيحين (٥٧٦/٢)، رقم (٣٩٥٢)، وقال: صحيح ووافقه الذهبي، والبيهقي، في شعب الإيمان (٥٥٦/٢)، رقم (٢٧٠٦)، وصححه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، ط ١، ١٤٢١هـ، مكتبة المعارف، الرياض (٨١/٢)، رقم (١٤٣٥).

(٤) في (ب) مبتدأ.

(٥) في (ب) يرغبهم.

الدنيا والآخرة، ونجا من دركات الخسران، ووصل إلى درجات الجنان.

ومعلوم أن العقلاء من هذا النوع الإنساني يطلبون الوصول إلى النعيم^(١) الأبدى، والعيش الهنيء الذي لا ينقطع ولا يفنى، لأن نعيم الدنيا وإن بلغ في الحسن والرفاهة^(٢) إلى أرفع الرتب، وأعلا المنازل فهو مكدّر بأنه زائلٌ ذاهب، والانتقال عنه قريب وإن^(٣) ظنّه من طواع كواذب الآمال بعيداً، وكل عاقل يعلم أن كل نعيم يزول، وكل نعمة تذهب، يكون حزنها أكثر من سرورها، وغمّها أعظم من الفرح بها.

وقد أحسن المتنبي^(٤) حيث يقول:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَ^(٥)

والآمال بأسرها وإن طالّت ذبولها، وبعدت مراميها فأخرها التقضي والذهاب، ولهذا أقول:

لا يَغْرَتُكَ طَوْلُ عَمْرِ فَإِنَّ الْحَبْلَ يُطْوَى مِنْ سَاعَةِ الْمِيلَادِ
قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: ٣]^(٦)، يقال: أوصاه ووصّاه توصية عهد إليه^(٧).

ومعنى التواصي أنه أوصى به أولهم آخرهم، وهذا ذاك، وذاك هذا. هذا

(١) في (ب) نعيم الأبدى.

(٢) في (ب) الرفاهية إلى أبلغ الرتب.

(٣) في (ب) ومن ظنه.

(٤) هو: أحمد بن الحسين بن الحسن أبو الطيب المتنبي الشاعر المشهور، نشأ بالشام وأكثر المقام بالبادية، وطلب الأدب وعلم العربية، ونظر في أيام الناس، وتعاطى قول الشعر من حدائته، حتى بلغ فيه الغاية التي فاق أهل عصره، وعلا شعراء وقته، مات سنة (٣٥٤)، انظر: الخطيب، تأريخ بغداد (١٠٢/٤)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (١٢٠/١)، البغدادي، خزانة الأدب (٣٤٧/٢).

(٥) انظر البيت: المتنبي، أحمد بن الحسين، في ديوان المتنبي، (ط، د)، ١٤٠٣هـ، دار بيروت، بيروت (ص ١٤٠).

(٦) في (ب) قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾

(٧) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (وصي)، ابن منظور، لسان العرب (وصي).

هو المعنى اللغوي.

والصيغة تدل على الاشتراك في أصل الفعل كما هو مقرر في علوم اللغة العربية.

والحق في الشرع واللغة ضد الباطل ، وأصله الثبوت من حق الشيء إذا ثبت ، والمحق^(١) ضد المبطل.

والمراد هنا أنه وصى بعضهم بعضاً بما يحق القيام به ، فيدخل التواصي بالإيمان وبالقيام بأركان الإسلام دخولاً أولياً.

ومن أهم أنواع التواصي بالحق أن يتواصوا بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن أهمها أيضاً أن يتواصوا ببيان ما يعرف بعضهم من بعض أنه مرتكب له واقع فيه من المعاصي والمكروهات ، وما يخالف ما يرضاه الله سبحانه ويحبه من الأخلاق الصالحة والشمائل المرضية فيما بينهم وبين ربهم ، وفيما بينهم أنفسهم.

ومن أعظم ما ينبغي [١١] التواصي به حفظ اللسان من الغيبة والنميمة والسخرية والتنازع بالألقاب ، فإن هذه أمور نهى عنها الكتاب العزيز ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ إلى آخر الآية [الحجرات: ١٢] ، ﴿هَمَّازٌ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] ، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ، ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ (٢) الآية [الحجرات: ١١] ، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

وفي السنة المطهرة من النهي عن هذه الأمور ، والنعي على فاعلها ، والذم

(١) في (ب) والحق ضد البطل.

(٢) في (ب) بحذف هاتين الآيتين: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ، ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ .

له ما يزر من له شيء من إيمان^(١) بعضه فضلاً عن كله.

وإنما يكبُّ الناسَ على مناخرهم في جهنم حصائد ألسنتهم كما ثبت ذلك عنه صلى الله عليه وسلم^(٢).

ومثل ذلك الكذب بل^(٣) هو أقبح من كل ذنب، وأشنع من كل معصية. وقد ذم الله مرتكبه بما هو معروف، ونفى عن فاعله الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥] الآية^(٤).

وورد^(٥) في السنة المطهرة من ذم الكذب، والتنفير عنه ما هو معروف^(٦).

وكذلك ورد في ذمّه من كلام الحكماء، ومواعظ الفُصحاء ما يتَّعظ به كل ذي عقل، ويزجر به^(٧) كل من له فهم لما ينشأ عن هذه الخصلة السيئة القبيحة

(١) في (ب) الإيمان.

(٢) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (١٣/٥)، رقم (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (١٣١٤/٢)، رقم (٣٩٧٣)، كلاهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الحاكم، في المستدرک (٤٤٧/٢) - (٤٤٨)، رقم (٣٥٤٨)، والألباني، في صحيح سنن الترمذي (٤٢/٣)، رقم (٢٦١٦).

(٣) في (ب) بحذف (بل).

(٤) زيادة في (ب)، (ومن الوارد في ذمه من السنة المطهرة: «يُطِيعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خَلْقٍ لَيْسَ الْخِيَانَةُ وَالْكَذِبُ»). أخرجه ابن عدي، في الكامل (٣٢٣/٤)، والبيهقي، في شعب الإيمان (٢٠٧/٤)، رقم (٤٨١١)، وضعفه الألباني، محمد ناصر الدين، في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ط ١، ١٤١٢هـ، مكتبة المعارف، الرياض (١٩٦/٧)، رقم (٢٣١٥). وانظر: تخريجه بتوسع في السلسلة.

(٥) في (ب) بحذف إحدى التونين: ورد.

(٦) من ذلك ما أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الإيمان، باب علامة المنافق (٢٧/١)، رقم (٣٤)، ومسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٧٨/١)، رقم (٥٨) واللفظ له، كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلةٌ منهن كانت فيه خلةٌ من نفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر).

(٧) في (ب) وينزر به.

من مفسد الدين والدنيا.

والحاصل أن قُبْحَهُ مما اتفقت عليه الشرائع، وتطابقت على ذمِّه كتب الله المنزلة على أنبيائه، واتحدت كلمة رسل الله سبحانه على قبحه وقبح فاعله.

واعلم أن لكل مقام مقالاً، فينبغي للإنسان عند ملاقة من له اشتغال بعمل من الأعمال أن يأخذ في توصيته بما ينتفع به فيما هو بصدده فمن كان مشتغلاً مثلاً بالعلم، فينبغي أن يوصيه بحسن النية أولاً.

ثم بالاشتغال بما يعود نفعه عليه من الكتاب والسنة، وما يتوصل به إليهما، ويعين على فهمهما، وكيفية العمل بهما ثانياً.

ثم الإنصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ثالثاً.

ثم الإرشاد إلى الرد إلى كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله صلى الله عليه (١) وسلم عند الاختلاف رابعاً.

ثم هكذا يأخذ مع أهل كل صناعة بتوصيتهم بما ينتفعون به في صناعتهم، ويحفظون به دينهم في مباشراتهم. فلا نطيل الكلام في تعداد أهل الحرف، وأنواع أهل الأعمال [١١ب]، فإنه لا يخفى على الذكي الممارس للناس العارف بقواعد الشرع ما يتعلق به النفع أو الضرر لكل طائفة من هذه الطوائف، فيأخذ مع كل طائفة فيما يهمها ويخشى منه ضررها، ويرجو (٢) فيه نفعها.

وبالجملته فهذه الآية كما تدل على ما ذكرنا، فقد دل على ذلك الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وما ورد في هذا المعنى من الآيات والأحاديث،

(١) في (ب) صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) في (ب) ويرجو.

وهو الكثير الطيب.

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم^(١) أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه)^(٢).

فمن فهم هذا الحديث حقّ الفهم، وتدبره كُلية التدبر عرف ما يجب على أهل الأخوة الدينية لبعضهم بعضاً، فمعلوم لكل عاقل أن الإنسان يحب لنفسه أن يكون في أعلا منازل الدين، وأرفع منازل الدنيا التي لم تُشَبَّ بما يكدرها من الإثم وسوء التبعة، وخطر العاقبة، فإن وجد من^(٣) نفسه أنه يحب لكل فرد من أفراد من جمعته وإياه الأخوة الدينية أن يكون هكذا، فليفرح روعه، ولتقرّ عينه، ويطمئن قلبه، ويتلج صدره، وإن لم يجد من نفسه محبة ذلك لأخيه فليعلم أنه مُفَرِّط في الأخوة الدينية، مفرط في إيمانه الذي لا يتم إلا بذلك، بل لا يثبت من الأصل إلا به، كما تدل عليه تلك العبارة التي تكلم بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم^(٤).

فإن قلت: ما تقول في تفسير قتادة لهذه الآية بأن المراد بالحقّ القرآن^(٥)؟

قلت: أقول إنه قد اقتصر على رأس الحق وأساسه وأكمّله وأجله واجمله، ولكن من الحق أيضاً سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦)، ومن الحق ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين من الهدي القويم،

(١) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٢) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢١/١)، رقم (١٣)، واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه (٦٧/١)، رقم (٤٥)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في (ب) في نفسه.

(٤) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان (٦١٤/٢٤)، الرازي، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٦٢/١٠)، البغوي، معالم التنزيل (٥٢٢/٨)، السيوطي، الدر المثور (٦٤٤/١٥).

(٦) في (ب) صلى الله عليه وآله وسلم.

والخلق المبارك فيما يتعلق بأمر معاشهم ومعادهم، وتعاملهم، وإن كان غالب ذلك هو في الكتاب والسنة، فإنهم متخلقون بهما، متقيدون بما فيها.

ولهذا قالت عائشة^(١) رضي الله عنها^(٢) في وصفها لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣): أنه كان خلقه القرآن^(٤)، مع قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فإن قلت: فما تقول فيما ذهب إليه بعض المفسرين أن المراد بالحق المذكور في هذه الآية هو التوحيد^(٥)؟

قلت: أقول إن التوحيد هو الباب الذي [١٢] لا يدخل إلى نور الإسلام والإيمان إلا منه، ولا يخرج من ظلمات الكفر والضلال إلا به، وهو الفرقان بين أهل الإيمان، وأهل الكفران، وهو المقدم من أركان الإسلام، ولكنه لا يتم الإسلام به وحده، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم^(٦) في الأحاديث الصحيحة الثابتة من طرق كثيرة في جواب من سأله عن الإسلام: (هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)^(٧)، فإذا^(١) كان الإسلام لا يتم به على انفراده، فكيف يتم به الإيمان

(١) هي: عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج النبي ﷺ تزوجها بمكة قبل الهجرة بستين، وابتنى بها بالمدينة وهي ابنة تسع، لم ينكح ﷺ بكرةً غيرها، ماتت سنة (٥٧)، وقيل: (٥٨)، ودفنت بالبقيع. انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/١٨٨١)، ابن الأثير، أسد الغابة (٧/١٨٨٨)، ابن حجر، الإصابة (٧/١٨٧).

(٢) في (ب) رضي الله تعالى عنها.

(٣) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٤) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل.. (١/٥١٣)، (٦/٧٤٦)، من حديث سعد بن هشام رضي الله عنه قال: «يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: أأست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

(٥) انظر: البلخي، تفسير مقاتل ابن سليمان (٣/٥١٦)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٨١)، البغوي، البغوي، معالم التنزيل (٨/٥٢٢)، الشوكاني، فتح القدير (٥/٧٠٠)، وهذا قول: ابن عباس رضي الله عنهما، ومقاتل ابن سليمان.

(٦) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٧) تقدم تخريجه (ص ١١٠).

الإيمان وعمل الصالحات؟!!

فإن قلت: هاهنا شيءٌ يقوي تفسير هذا القائل، وهو أن يقال أن الإيمان لما كان مذكوراً في هذه السورة قبل التواصي بالحق، وكذلك لما كان عمل الصالحات مذكوراً قبله كان حمله على التوحيد سائغاً مقبولاً؟

قلت: إذا كان عمل الصالحات مما تدخل فيه أركان الإسلام دخولاً أولياً فقد دخل التوحيد فيها من هذه الحيثية، بل دخوله فيها مقدّم على دخول سائر أركان الإسلام، لأنه بابها الذي يدخل منه إليها، ومفتاحها الذي لا يتيسر لأحد الوصول إليها بدونه، فالتفسير للحق به لم يأت بفائدة لم يتقدم في هذه السورة ما يفيدها.

فإن قلت: هذا الإلزام مشتركٌ بينك وبين هذا القائل، فإن عمل الصالحات قد اشتمل على التواصي بالحق على الصورة التي فسرت الآية بها، لأنه من عمل الصالحات.

قلت: نعم، هو من جملة عمل الصالحات، وكذلك التواصي بالصبر، ولكنهما لما كانا يكثر الانتفاع بهما، ويتعاضم الأثر الحاصل عنهما كان ذلك وجهاً لإفرادهما بالذكر، وذلك نكتة مسوغة لمثل هذا كما صرح به أرباب المعاني والبيان.

فإن قلت: لهذا القائل أن يسأل هذا المسلك الذي سلكته، ويقول أن التواصي بالتوحيد لما كان بالمنزلة التي هو بها حسبما قدمت ذكره صلح لإخراجه من عموم الصالحات؟

قلت: هو وإن^(٢) تم له هذا فقد ارتكب خلاف ما يدل عليه اللفظ، فإن قصر

(١) في (ب) وإذا كان.

(٢) في (ب) هو إن تم.

الحق على التوحيد لم يدل عليه هذا اللفظ القرآني [١٢ب] بوجه من الوجوه
المعتبرة، فالأولى ما قدمنا ذكره من دخول التوحيد تحت الأعمال الصالحة
دخولاً أولياً، وحمل التواصي بالحق على ما ذكرنا، فإن ذلك هو الذي يفيد
المعنى العربي الذي يجب علينا تفسير كتاب الله سبحانه به.

فإن قلت: هاهنا إشكالٌ آخر، وهو أنه إن حُمل التواصي بالحق على
العموم لم يكن في قدرة أحد من العباد ذلك، وإن حمل على الإطلاق
الصادق على البعض فما هو؟

قلت: هو محمول على البعض الذي يحقُّ التواصي به كما قدمنا بيانه فلا
إشكال.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

الصبر ضد الجزع، والمراد به هنا الصبر على المكاره التي تعرض للعبد
في بدنه أو أهله أو ماله، فإن من صبر على ذلك لكونه من قدر الله، وما
قضى به عليه كان ذلك صبراً محموداً، ومنه الصبر عن معاصي الله عز وجل،
والصبر على ما يقوم به من فرائضه من المداومة عليها وإيقاعها على الوجه
المأمور به، ولاسيما ما كان يحتاج القائم به إلى مشقة كالجهاد، والحج،
وبعض أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: ما وجه تخصيص التواصي بالصبر بالذكر مع دخوله تحت
التواصي بالحق بعد دخوله تحت عمل الصالحات؟.

قلت: وجه ذلك أنه لما كان الصبر بمنزلة عظيمة، ورتبة فخيمة كما يفيد
ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿إِنَّمَا يُوفَى
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، كان إفراده بالذكر بعد دخوله
تحت ما قبله دليلاً على ارتفاع درجته، ومزيد شرفه، كما هو النكتة لذكر
الخاص بعد اندراجه تحت عموم متقدم عليه، أو متأخر عنه.

فإن قلت: قد ثبت في الكتاب العزيز قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. وهذا يفيد أنه مع^(١) جميع عباده!

قلت: هذه معية عامة، والتي مع الصابرين معية خاصة دالة على أناقة هذه الخصلة على كل الخصال^(٢).

وأي فضيلة تداني فضيلة من كان الله معه! وأي مزية توازي مزية من هو من أهل هذه الطبقة الشريفة، والمنزلة السامية! ومثل هذه المعية الخاصة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فمن جمع بين التقوى والإحسان استحق هذه المعية الفاضلة، والمنقبة العالية [١١٣].

وقد ورد في شرف الصبر ومزيد فضله من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ما لو جمع لكان مؤلفاً مستقلاً.

فإن قلت: متى يحق التواصي بالصبر؟.

قلت: يحق إذا رأى الإنسان من أخيه جزعاً من أمر قد أصابه، أو من حاجة قد نزلت به، أو من قريب قد فارقه أو دنا فراقه، أو من عدو قد جاهره بالعداوة، أو نحو ذلك، فيذكر له أن هذا الجزع لا يفيد شيئاً، ولا يدفع مكروهاً، ولا يرد فائتاً، وليس له فائدة إلا مجرد فوت ثواب المصيبة مع ضم مصيبة الجزع إلى مصيبة ما وقع الجزع لأجله، ويبين له أن تعذيب الإنسان نفسه بالهم والغم فيما لا يمكن دفعه، ولا يقدر العبد على استداركه شعبة من الجنون.

(١) في (ب) من جميع عباده.

(٢) انظر: أقسام المعية والكلام عليها: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، طبع بأمر الملك: فهد بن عبد العزيز، إشراف: الرئاسة العامة لشئون الحرمين (١١/٢٤٩-٢٥٠)، الفوزان، د: صالح بن فوزان، شرح العقيدة الواسطية، ط٦، ١٤١٣هـ، مكتبة المعارف، الرياض (ص ٨٣-٨٦).

وما أحسن قول الشاعر^(١) :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهبُ فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهبٌ؟
هناك يحقُّ الصبرُ والصبرُ واجبٌ وما كان منه للضرورة^(٢) أوجبٌ^(٣)

وقد اتفق العقلاء جميعاً مسلمهم وكافرهم على أن الجزع لأجل أمرٍ قد فات وتعدر استدراكه قبيح عند جميع العقلاء؛ لأنه تعذيب للنفس فيما لا يمكن رجوعه، ولا يُرجى إدراكه فهو مفسدةٌ خالصةٌ خالية عن النفع بوجه من الوجوه، فلا فرق بينه وبين من يضربُ نفسه بشيء يؤلمه، لا لسبب يقتضي ذلك، ولا لعلّة توجبه، بل عبثاً ولعباً، بل ضرر الجزع أشد، فإن أهل الطب اتفقوا على أنه يضر بالأبدان ضرراً شديداً، ويتولد^(٤) بسببه العلل الصعبة الشديدة التي يصعب الخلوص عنها بالأدوية.

وما أحسن قول القائل^(٥) :

ولا يردُّ عليك الفائق الحزن^(٦).

فإن قلت: قد دل ذلك النظم القرآني على أنه لا مخرج من الخسر اللازم لكل إنسان إلا بما^(٧) ذكر بعد حرف الاستثناء من الإيمان، وما عطف عليه

(١) هو: علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، المعروف بابن الرومي، الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة، مات ببغداد سنة (٢٨٣)، وقيل غير ذلك. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان (٣/ ٣٥٨)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٥)، الصفدي، الوافي بالوفيات (٢١/ ١١٣).

(٢) كذا في النسختين من المخطوط، وعند ابن الرومي، علي بن العباس، ديوان ابن الرومي، شرح الأستاذ: أحمد حسن بسج، ط ١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (١/ ١٤٧): (كالضرورة).

(٣) انظر: البيهقي عند ابن الرومي، في ديوانه (١/ ١٤٧).

(٤) وفي (ب) وتتولد.

(٥) القائل: المتنبي.

(٦) انظر: عجز البيت عند المتنبي، في ديوانه (ص ٤٧١)، وأما صدره فيقول فيه:

فما يُدِيمُ سرورٌ ما سررتَ بهِ ولا يردُّ عليك الفائق الحزنُ.

(٧) في (ب) إلا ما ذكر.

من عمل الصالحات ومن التواصي بالحق والتواصي بالصبر، مع أن مثل التواصي بالصبر على الصفة التي ذكرناها ليس بواجب، وغايته أنه من أكد المندوبات، ومن أفضل ما يؤجر عليه الإنسان من الصالحات، ولكنه لا يوجب تركه البقاء في الخسر، ولو أوجب ذلك لكان واجباً لا مندوباً، ولم يقل أحدٌ من أهل العلم [١٣ب] بأنه واجبٌ على تلك الصفة، بل من الموعظة الحسنة والدعاء إلى الخير الخالص.

قلت: لا شك أن بعض التواصي بالصبر واجبٌ، وذلك حيث يكون الصبر واجباً متحتماً على صاحبه، والجزع حرام عليه، وذلك كالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على طاعاته الواجبة، فإنه يجب على كل مسلم الصبر على ذلك، وعدم الوقوع فيما يؤدي إليه ترك الصبر من الإقدام على معاصي الله، والوقوع في المحرمات، وما يؤدي إليه ترك الصبر على فرائض الله من الوقوع في الإخلال بها، والإهمال لما تحتم عليه القيام به منها.

فإنه إذا كان الأمر هكذا وجب على من علم ذلك، الأمر له بالصبر من باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان عند وجود سببهما المفضي إلى ترك ما يجب، وفعل ما يحرم. ولا إشكال في مثل هذا.

وهكذا التواصي بالحق يُحمل على النوع الذي يجب منه. وذلك إذا كان قد وقع الإخلال بما يجب التمسك به من الحق الذي يحق على كل مسلم القيام به، فإنه حينئذ يكون التواصي بلزومه والتمسك به واجباً على كل مسلم؛ لأنه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان عند عروض سببهما المفضي إلى ترك ما يجب، وفعل ما يحرم كما قدمنا.

وهكذا عمل الصالحات؛ فإنه يحمل على ما يجب فعله منها، أو يستلزم تركه الوقوع في محرم من المحرمات.

هكذا يجاب عن ذلك الإشكال، وإن كان التواصي بالحق والتواصي بالصبر مشروعين لكل مسلم في كل حال، وعلى كل وجه، وفاءً بحق العموم الذي أرشد إليه الكتاب العزيز، وجاءت به السنة المطهرة.

فالحاصل أنه يخرج العبد عن الخسر بالقيام بما يجب عليه من عمل الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. ويحسنُ منه ويُندب له^(١) أن يقوم بإرشاد أخيه إلى الحق والصبر في كل موطن من المواطن التي يكون الإرشاد إليها حسناً جميلاً^(٢)، فإن ذلك من باب النصيحة التي يقول فيها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم^(٣): (الدين النصيحة)^(٤).

وأنت خبير بما يفيد هذا التركيب المصطفوي من الحصر الدال على المبالغة في شأنها [١٤]، وأنها هي الفرد الكامل من أفراد الدين، بل قد جعلها الشارع من حق المسلم على المسلم، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (أن حق المسلم على المسلم^(٥) إذا لقيه أن يسلم عليه، وإذا عطسَ أن يشمته، وإذا دعاه أن يجيبه، وإذا مرض أن يعود، وإذا مات أن يتبعه، وإذا استنصحه أن ينصحه)^(٦).

فالتواصي بالحق والتواصي بالصبر شعبةٌ من شعب النصيحة، ونوع من

(١) في (ب) بحذف (له).

(٢) كذا في (ب)، وفي (أ) (حسنٌ جميلٌ)، والصواب ما أثبتناه.

(٣) في (ب) صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) تقدم تخريجه (ص ٧٣).

(٥) في (ب) بحذف (كما ثبت في الصحيحين وغيرهما: أن حق المسلم على المسلم).

(٦) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (٣٨٤/١)، رقم (١٢٤٠)، ومسلم،

ومسلم، صحيح مسلم، في السلام، باب من حق المسلم للمسلم (١٧٠٤/٤)، رقم (٢١٦٢)، واللفظ له،

وابن ماجه، سنن ابن ماجه، في الجنائز، باب ماجاء في عيادة المريض (٤٦١/١)، رقم (١٤٣٥)، جميعهم

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنواعها، وكما يكون فيهما^(١) ما هو واجب كذلك يكون في أفراد النصيحة ما هو واجب.

فإن قال من يتقيد بعلم الأصول، ويمشي على طرائقه أن هذا من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز، وهو لا يجوز.

قلنا له: نحن نمنع أن يكون هذا من الجمع، بل هو من العمل بما يفيد اللفظ، وتقتضيه الصيغة. والاختصار على البعض لدليل اقتضى ذلك، ولو سلمنا فنحن نمنع معه^(٢) أيضاً عدم الجواز فيما نحن بصدده، فإنه يمكن أن يُراد معنىً يشملهما ويعبر به عنهما، فيكون ما ذكرناه من عموم المجاز لا من الجمع بين الحقيقة والمجاز، على أنه يمكن أن يقال: إن ذلك من الجمع بين معنيي المشترك، وهو سائغ مقبول على ما هو المذهب الحق من تلك المذاهب المدونة في الجمع بين معنيي المشترك.

وبهكذا يقال في قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهكذا يقال في النصيحة.

فإن قلت: هذا التواصي بالحق، والتواصي بالصبر إذا كان مع من يقبل ذلك، وينعمل له فهو^(٣) شأن المؤمنين مع بعضهم البعض، وديدئهم وهُجِرَآهم، وربما كان بعضهم لا يقبل ذلك، ولا ينعمل له، ولا ينقاد لمن وصَّاه بالحق، ووصَّاه بالصبر.

قلت: الكلام هنا مع أهل الإيمان، ولهذا عطف على الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالحرف المقتضي للجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، وشأن أهل الإيمان قبول ذلك، والإنعمال له، والانقياد لِقائمه، وشكره على ذلك،

(١) في (ب) فيها.

(٢) في (ب) بحذف (معه).

(٣) في (ب) من شأن.

والدعاء له، وأما ما ذكرت فهو من أخلاق الجبابرة، وجُفأة المنتسبين إلى الإسلام ولسنا بصدد الكلام معهم.

ولكن إذا كان التواصي بالحق والتواصي بالصبر واجباً على الصفة التي قدمنا فقد عرفناك أنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [١٤ب]، وهو واجب على كل مسلم لكل من ارتكب محرماً، أو ترك واجباً فعليه أن يقوم بغرضه، ويصكّ به وجه من استحقه، ويرغم به أنفه، فإن قدر على^(١) أن يحمله على ذلك شاء أم أبي فهو الواجب على من وجد من نفسه قوة على ذلك، وإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن ينكره بلسانه، وإن بلغ في الضعف إلى حدٍ يعجز عن الإنكار باللسان، أو يخشى على نفسه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه ففي الإنكار بالقلب رخصة له، لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم^(٢) أنه قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)^(٣).

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ينكرون ما علموه منكراً بأفعالهم وأقوالهم، ويكافحون بذلك الملوك والأمراء.

اللهم غفرًا، اللهم غفرًا، اللهم غفرًا للمقصرين من عبادك في القيام بهذه الخصلة التي هي أس دين الإسلام، ورأس قواعده، وأعظم ما يحفظ به هذه الشريعة المطهرة عن انتهاك العصاة، وتلاعب المتمردين.

وهاهنا مفسدة عظيمة تُرك بها كثير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصارت ذريعة شيطانية للمداهنين في دين الله^(٤)، وهي ما وقع في

(١) في (ب) بحذف (على).

(٢) في (ب) صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٣) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، في الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/٦٩)، (٤٩)، من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) في (ب) دين الله تعالى.

بعض كتب الفروع من جعل ظن التأثير شرطاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا شرط لم يدل عليه كتاب الله^(١)، ولا سنة رسوله^(٢)، فهو تمسك بالهباء، وتعلل بما هو على شفا جُرْفٍ هارٍ، ومع هذا فإنهم يجعلون ذلك تَعَلَّةً لهم وعذراً، وهم يعلمون أن التكلم بالحق، وبما أمر الله^(٣) به، وأرشد عباده إليه لا يستطيع أحد رده كائناً من كان، وإن بلغ في التمرد عن الحق، والتجبر في الدين إلى حد يقصر عنه الوصف، فإنه إذا سمع ذلك فغايته أن يذكر لنفسه المعاذير والعلل المعتبرة. وقد وقع في قلبه ما وقع، واستحى من الناس أن يتظَهَّرَ بذلك أو يتجاهر به، وهذا أقل ما يحصل معه، فما ذكره من يحق عليه القيام بذلك أنه ظن عدم التأثير فهو كاذبٌ على نفسه، كاذبٌ على ربه، كاذب على عباد الله الصالحين.

فمالك، لا كثر الله في عباده من أمثالك، وللاستدلال لما^(٤) أنت فيه من الدهان، والسكوت على^(٥) المتجرئين على معاصي الله، المنتهكين لحرماته، المتعدين لحدوده بهذا الدليل الباطل! من وجهين:
الأول [١٥]: أنه غلط من قائله، باطل من أصله.

الثاني: أن ما تزعمه من الظن الحاصل لك هو من بناء الباطل على الباطل، وترتيب المختل على المختل.

فإن كنت لا تعلم بالوجه الأول فاعلمه الآن، فإن تقصيرك في علم الشرع

(١) في (ب) كتاب الله تعالى.

(٢) في (ب) ولا سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(٣) في (ب) أمر الله تعالى.

(٤) في (ب) بما أنت.

(٥) في (ب) عن.

أوقعك في تقليد من قال بالباطل.

وأما الثاني: فأنت تعلمه من نفسك، فإن شككت في ذلك فافعل ما أمرك الله^(١) به من الأمر بالمعروف عند عروض ذلك الظن الشيطاني لك، حتى تعلم فساده، وتتيقن بطلانه، ويسفر صبح هدايتك، ويطلع بدر رشادك.

ولكن عليك قبل ذلك بمرهمٍ نافع، وترياق شافٍ، وهو أن تحسن النية، وتوطن نفسك على أنك لم تفعل ذلك إلا للوفاء بما أوجهه الله عليك، وأخذه على أمثالك، واغسل عن قلبك محبة أن يقال قال فلان بالحق، تكلم بالصواب، أنكرو المنكر قام بما أمره الله به، فإن هذه الوسوس الشيطانية، والخواطر الخذلانية تكون سبباً لعدم تأثير ما جئت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد تظن عدم تأثير ما جئت به لا لهذا السبب، فتقول بعد ذلك: لا أظن التأثير.

ولو عرفت العلة علمت أن للتكلم بالحق تأثيراً في كل العباد، وعلى كل معاند ومتمرد كائناً من كان.

وسأقص عليك واقعة صحيحة اشتملت عليها كتب التاريخ المعتمدة، وهي أن بعض صلحاء العباد القائمين بما أوجب الله^(٢) عليهم من هذا التكليف رأى عشرة آنية مملوءة خمراً مع بعض خدم الملوك، يريد أن يوصل ذلك إلى الملك، وقد سافر به من أرض بعيدة، فأخذ عصاه، ثم ما زال يضرب تلك الآنية بها حتى كسر تسعة منها، ثم وقف على العاشر فأمسك العصا ولم يكسره فبمجرد ما فعل ذلك ذهبوا به إلى الملك، وقالوا: فعل وفعل، وقد ظنوا وظن من هو مشاهدٌ لذلك أنه سيقتل، فأوصلوه إلى الملك فارتجف لعصاته، واضطرب حاله، وعراه من الهيبة ما لا يُقادر قدره، وغاية

(١) في (ب) أمرك الله تعالى من الأمر بالمعروف.

(٢) في (ب) أوجب الله تعالى عليهم.

ما وقع منه أنه قال له: لم فعلت هكذا؟ قال: لأن الله سبحانه^(١) حرّم ذلك، وأوجب على عباده إنكاره وتغييره، فقال له: [١٥ب] فلائي^(٢) سبب تركت واحداً منها؟ قال: لما كسرت التسعة أدركت في نفسي شيئاً من العُجب فتركت ذلك لئلا أكسره وقد انضم إلى تلك النية هذا خاطر القبيح، فلم يقل له شيئاً وخرج سالماً، وقام بما أمره^(٣) الله سبحانه به^(٤).

وكم وقع من التأيد الرباني، والنصر الإلهي لكثير من القائمين بهذا الواجب العظيم، وقد اشتملت عليه كتب التأريخ. فمن كان له نظر فيها فهو عالم بذلك غير محتاج إلى التنبيه عليه، وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

^(٥) فرغ منه مؤلفه محمد بن علي الشوكاني غفر الله^(٦) لهما في نهار السبت لعله سادس عشر شهر شوال سنة ١٢٣٧هـ^(٧).

(١) في (ب) لأن الله حرم ذلك.

(٢) في (ب) لأي سبب تركت.

(٣) في (ب) بما أمر الله سبحانه.

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧٠/١٤).

(٥) في (ب) قال مؤلفه: فرغ.

(٦) في (ب) غفر الله تعالى لهما.

(٧) زيادة في (ب) من هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحبه أجمعين.